الفصل الثاني

مجاهدة، وجهاد

نهاية الطواف
(تراث وآثار)

obeikandl.com

obeikandl.com

(٤)

مجاهدة، وجهاد

- رهين المحبسين .
- صائمُ الدهر .
- السرُّ المذاع .
- الأديب الحر .
- خصومة واتهام .

obeikandl.com

رَهِينُ المحبسين

هذا زمـانٌ ليس في أهلـــه
إلا لأَن تهجـرَه أهـلُ
حان رحيلُ النفسِ عن عالَمٍ
ما هو إلا الغدرُ والجهلُ
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

من اللحظة الأُولى لإيابه إلى معرة النعمان ، بدأ ينفذ ما فرضه على نفسه من قرارٍ : بنبذة العزلة ، وانقضاب عن العالم ، وثباتٍ في بلده إن حالَ أهله عنه من خوف الروم :

وتفسير القرار ، أو الوعد كما سمَّاه : أن يلزم بيته في معرة النعمان لا يبرحه لأَي سبب أو داع ، ويمتنع عن الزواج ، ويسد الذرائع ، فيقنع من الطعام بما يمسك رمقه مما تنبت الأَرض ، ومن اللباس بما

يستره من خشن الثياب ، ومن الفِراش بحصيرٍ من بردي أو لباد ،

وأن يروض نفسه على الزهد في الدنيا والسلو عنها ، كيما يهون عليه احتمال محنة الوجود ووطأة الحرمان .

ذلك ما استقر عليه عزمُه وأجمع عليه أمرَه ، منذ انسحب نفسيا من معركته الأُولى ، وأخذ طريق الإياب من بغداد .

وبه سارت رسالته ، بلاغا ، إلى أهل بلده .

فكيف كان مسلكه ، وماذا أطاق من ذلك كله ، وماذا أعياه أن يطيق ؟

****

أما العزلة ، فالتزمها من جانبه إلى أقصى المدى :

لبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره إلا مرة واحدة لم تتكرر ، حين حمَله قومُه على الخروج ليشفع لهم لدى « أسد الدولة : صالح بن مرداس ، صاحب حلب » وكان قد خرج إلى المعرة ليخمد حركة عصيانٍ من أهلِها ، سببُها فيما نقل المؤرخون [1] : « أن امرأة دخلت جامع المعرة صارخة ، تستعدي المصلين على صاحب الماخور الذي أراد اغتصابها . فنَفَر كل مَن في الجامع وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه . وكان أسد الدولة في نواحي صيدا فأَسرع إلى هناك وعسكر بظاهر المعرة وشرع في قتالِها ورماها بالمنجنيق ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، إقامة لهيبة السلطان .

---

(١) ابن العديم في « الإنصاف والتحري » والقفطي في « إنباه الرواة » والذهبي في «تاريخ الإسلام » والصفدي في « نكت الهميان » .

« فلما رأى أهل المعرة ألا قِبَلَ لهم بذلك ، سعوا إلى أبي العلاء يسألونه الخروج إلى أسد الدولة في معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعةَ لهم عنده . وما زالوا به حتى خرج متوكئاً على يدِ قائدٍ له . وقيل لصالح : إن باب البلدة قد فُتح وخرج منها رجل يقادُ كأنه أعمى . فقال : هو أبو العلاء ، أوقِفوا القتال .

« وأذِن له وأكرمه ، وعرَّفه شوقه إلى لقائه . ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له أنه جاء شفيعا لقومه ، أجاب صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء – يعني معرة النعمان . ثم استنشده فأنشد :

تغيبتُ في منزلي برهةً
ستيرَ العيوب فقيدَ الحسَدْ
فلما مضى العمرُ إلا الأقلَّ
وحُمَّ لروحي فراقُ الجسد
بُعِثتُ شفيعا إلى صالح
وذاك من القوم رأيٌ فسَدْ
فيسمع مني سجع الحما
م وأسمعُ منه زئير الأسد

قال صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجعَ الحمام ، وأنت الذي نسمع منه زئير الأسد .

« ثم أمر بخيامه فوضِعت ، ورحل عن المعرة » وعاد أبو العلاء إلى محبسه وهو يقول ردا على اعتراف القوم بفضله في ردِّ أسد الدولة عن البلد :

نجّى المعرة من براثن صالـــح
ربٌّ يداوي كـلَّ داء مُعضِـلِ
ما كان لي فيها جنـاحُ بعوضة
اللهُ ألحقَهم جنـاح تفضـــل

والبيتان من (اللزوميات) .

والخبر كما رواه المؤرخون ، يعطي سببا لخروج أبي العلاء ، تحت ضغطٍ من إلحاح قومه « ما زالوا به حتى خرج » ،

كما يعطي شاهدا على منزلة أبي العلاء :

لدى قومه الذين اختاروه شفيعا لهم عند أسد الدولة صالح بن مرداس ، عن يقين بأن مَن اختاروه خليق بأن تُقبل شفاعته .

ولدى « صالح بن مرداس » صاحب حلب ، الذي لم يكد يسمع من بعض جنده أن باب المعرة قد فُتح وخرج منه رجلٌ يقاد كأنه أعمى ، حتى عرف من فوره أنه أبو العلاء ، فأمر بوقف القتال وأكرم وفادته . وكان هو الذي سأل أبا العلاء : « ألك حاجة ؟ » فأعفاه بذلك من أن يبدأ بعرض حاجته ، سؤالا والتماسا .

قد نلمح من الحوار بين الرجلين ، رأيَ كل منهما في الآخر ، ولكن الخبر لا يحدد وراء ذلك ، موقف أبي العلاء من الحادث الذي استنفر قومه غضبا لحرمة امرأة منهم ، فأغضبوا أسد الدولة بتمردهم وعصيانهم ، فوطئ المعرة وطأة فادحة ، حتى نجاها الله من « براثن صالح » ...

أبو العلاء ، على العهد به ، هو الذي يعطينا كلمته بيانا لموقفه ،

مسجَّلا في قصيدة من لزومياته :

أتت جامعٌ يوم العروبة جامعـا
تقص على الشُّهَّادِ بالمصير أمرهـا
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتِها
لَخِلتُ سمـاءَ الله تمطِـر جَمْرَها
فهدُّوا بنَاءً كـان يأْوي فنـاءه
فواجرُ أَلقت للفواحشِ خُمْرَهـا
أَلِفنا بلاد الشام إلـفَ ولادةٍ
نلاقي بهـا سود الخطوب وحُمْرَها
. . . . . .
فإني أرى الآفاق دانت لظالـم
يغر بغاياها ويشرب خمرهـا

****

ومتى كان الحادث ؟

في عهد « صالح بن مرداس » بحلب ، أي فيما بين سنتي ٤١٧ ، ٤١٨ هـ . وقد مضى علي أبي العلاءِ نحو ثماني عشرة سنة في محبسه ، وبلغ من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، حسبها وقد طالت عليه ، أشرفت به على النهاية فلم يبق من عمره إلا الأقل ، * وحُمَّ لروحي فراقُ الجسد *

لكن ظنه أخلفه ، فما يزال عليه أن يكابد الحياة أكثر من ثلاثين سنة ؛ بعد خروجه شفيعا لقومه .

ويضيف أبو العلاء في تأريخ الحادث الجلَل الذي أخرجه ، ما فات المؤرخين أن يلتفتوا أو يلفتوا إليه : لقد حدث ذلك * يوم العروبة * وهو يوم الجمعة ! فيه دخلت السيدة المسلمة المسجدَ الجامع وقد احتشد المسلمون لصلاة الجمعة ، فقصَّت عليهم أمرها مع صاحب الماخور الذي أراد أن يحملها على الفاحشة . فنفروا جميعا غضابا وهدُّوا الماخور ، ولو لم يفعلوا لأمطرتهم سماءُ الله جَمرها ، فيما خال « أبو العلاء » الذي ما هان عليه قط ، أن يقوم إلى جواره ببلده ، في صميم ديار الإسلام ، ماخور يحتال على التغرير بنساء المسلمين فيأوي منهن إلى فنائه * فواجر ألقت للفواحش خُمْرَها *

وينفذ الهواء إليه في محبسه ، ملوثا بأنفاس البغايا ممن غرَّهن الفاجر الظالم ، فيحس بالاختناق ، ويود لو أنه استطاع أن ينجو من المناخ المسموم ، لكنه كان مقيدا بعهده الذي قطعه على نفسه ؛ أن يلزم بلده ما عاش .

وعاد إلى محبسه ، بعد خرجته اليتيمة التي لم تتجاوز ظاهر المعرة . ثم لم يبرحه قط حتى خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباء إلى جوار * قوم أجادوا العظاتِ ، وما فيهمُ أحدٌ نابسُ *

****

أطاق أبو العلاء الحبس في منزله بالمعرة نحو نصف قرن من الزمان ،

لكن الذي لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزلته ، ولقائهم إياه في محبسه ...

قبل وصوله إلى المعرة ودخوله محبسه ، أرسل إلى أهل بلده بلاغا بقراره البات ، رجاء أن يُخلّوه وما اختار ، فيعفوه من حرج السعي إلى منزله الموصد عليه ، ولا سبيل لهم إلى لقائه .

أو بنص كلماته ، في رسالته « إلى السكن المقيم بالمعرة » ، منصرَفَه من بغداد :

« ... وبادرتُ إعلامَهم ذلك ، مخافة أن يتفضل متفضّلٌ بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه . فأكون قد جمعتُ بين سَمجَين : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورُبَّ ملومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائر : خلِّ امرأً وما اختار »[1] .

غير أنهم مع ذلك أبوا أن يستجيبوا له .

غلَبهم الحرصُ على لقائه ، وكرهوا أن يخلوا بينه وبين ما اختار من عزلة صارمة وانفرادٍ موحش .

وحاول مخلصاً أن يصرفهم بكل ما أطاق من جهد . وأفلح في ذلك إلى حين ، فما سمح بالدخول إليه إلا لخاصة أهله الأدنَين ، ممن ذكرهم في رسالته إلى خالِه أبي القاسم .

« .... أجمعتُ على انفرادٍ يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني اللهُ به وصلَ الذراع باليدِ والليلة بالغد » .

لم يتجاوزهم إلى بني الأعمام والأخوال !

---

(١) أنظرها في « رسائل أبي العلاء » تحقيق مرجليوث وفي « الإنصاف والتحري » لابن العديم : ٥٤٦/ تعريف .

ولَدى الأهل الأقربين الذين أُذِن لهم أبو العلاء في الدخول ، التمس أهل البلد مَن يفتح لهم بابَه الموصَد .

كتب « ابن العديم » مؤرخُه المنصف المتحري :

« أقام مدة ويلة في منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم إن الناس تسببوا إليه – يعني : التمسوا الأسباب – وألحوا في طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأدنين » .

وروى فيما روى ، قصيدة لأبي صالح محمد بن المهذب ، استشفع فيها بأبي الهيثم عبد الواحد ، لدى أخيه أبي العلاء . وفيها يقول « محمد ابن المهذب » شاكيا متوسلا :

أراها أبَتْ إلا النوى بيَ مغرما
ولو رضيتْ هجرانهَا لكفاني
تضن بإهداء السلام تجاهلا
ولو علمتْ أن الرقاد جفاني
هبِي هجعةً كيما أرى الطيفَ مرةً
بها تحت أرواقِ الدجى ويراني
لعلِّيَ أشفي عِلّتي بلقائه
فكم من خليل زارني فشفاني
وود كريم لو ينال خلائقا
هي النجم زادتْه علوَّ مكانِ
تخيَّر قلبي والحشا ، ثم إنه
ثوى بمحلٍّ عن سواه مُصان

أبا الهيثم اسمع ما أقول فإنمـا
تُعين على ما رُمْتَ خيرَ معـان
قريضي هجاءٌ إن حُرِمتُ مديحَه
لأَروعَ وضاح الجبين هجـانِ
أطلَّ على بغداد كالغيث جاءها
به سعدُ نجمٍ في أَجـلِّ أوان
نضاها ثيابَ المجد وهي لباسُها
وبدَّلهـا مـن شدةٍ بليـانِ
فيا طِيبَ بغدادٍ وقد أُرِجتْ به
على بُعدِها الأَطرافُ من أَرجانِ
. . . . . .
نـأَى ما نـأَى والموتُ دون فراقِه
فما عُذره في النـأْي إذ هو دان
فكُنْ حـاملا مني إليه رسالـة
تبين إليـه في هضاب أَبـان
فإن قال أَخشى من فلانٍ تشبها
فقُلْ : ما فلانٌ عندنـا كفُلانِ
هو الخِلُّ ما فيه اختلالُ مودةٍ
فلا تخش منه زلَّةً ، بِضمانِ
فإن خنتُ عهدا أَو أَسأْتُ خليقة
ولم يك شأْني في المـودة شانـي

فلا أحسنتْ في الحرب إمساكَ مَقبضي
يميني ، ولا يُسراي حفظَ عناني
لعل حياتي أن تعود نضيـــرةً
لديه كما كانت ، وطِيبَ زماني

****

القصيدة وثيقة بالغة الأهمية والخطر ، من حيث دلالتها على ما كان يعنيه أبو العلاء بقوله : « أجمعت أمري على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني الله به وصلَ الذراع باليد » ....

ومن حيث شهادتها لمبلغ صدقه فيما قال :

فأبو صالح محمد بن المهذب : من أعيان العصر فضلاً وعلما وتقى . وهو ابن عمة أبي العلاء ، ورفيق صباه وزميله في الدرس وصديقه الصفيّ في الشباب . وهذا هو يستشفع بابن خاله أبي الهيثم ، ليُفتح له البابُ الموصَد حتى على ذوي الرحم والقربى ، من أمثال أبي صالح الذي يمت إلى الضرير المعتزل بأقوى الأواصر وأقرب الأسباب !

هل كان أبو العلاء في كرم سجاياه ومروءة حفاظه بحيث يصم مسمعه عن مثل ذلك التوسل الضارع من ابن عمته ورفيق صباه ؟

أو كان ، وقد رق له قلبه فأذن له ، بحيث يملك أن يقول لسواه من ملتمسي لقائه بالشفاعة والتوسل : « ما فلانٌ عندنا كفلان » ؟

لقد فاته وهو يصدر قراره ، أنه يتجاوز نفسه إلى أهل بلده ، ويشق عليهم بما لا يطيقون من قطيعته ، وهم الذين حزنوا لسفره إلى

بغداد وألحوا في رجائه أن يعود .

وليكن أنهم صبروا على ما لا حيلة لهم فيه من فراقه ، ومنزله ببغداد ناءٍ بعيد . أنّى لهم الصبر وهو دانٍ قريب ، ليس بينهم وبينه إلا بابٌ وجدار !

وتذكر المثل السائر الذي ضربه لهم :

« خلِّ امرأً وما اختار » .

وقد اختار لنفسه العزلة فليبق في محبسه حيث اختار .

واختاروا لأنفسهم أن يحظوا بلقائه ، ومن الإنصاف أن يخليهم وما اختاروا !

****

وفُتِحَ البابُ الموصَد ،

لا ليخرج منه أبو العلاء إلى الناس ،

بل ليدخل عليه الزائرون من ذوي قرباه وأهل بلده ، ثم من سائر بلدان العالم الإسلامي .

فصار منزله الذي أراده سجناً له ، داراً للعلم يحج إليها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه أماليه ورسائله وديوان شعره ، ويتعلمون منه ويأخذون عنه .

وفرغ للتدريس والإملاء ، فإذا خلا بنفسه في غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأمل .

قال القفطي وابن خَلكان : [1]

(١) في : « إنباه الرواة » و« وفيات الأعيان » .

« وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماءُ والوزراءُ وأهلُ الأقدار » .

وقال ابنُ فضل الله العُمَري : [1]

« وأخذ عنه خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل . كلهم قُضاة وأئمة وخطباء وأهلُ تبحُّر ، واستفادوا منه ، ولم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثُه إلى ضعفٍ أو وهن » .

****

وفي هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج إلى عدد من الكتبة الحُذَّاق الأُمناء ، يفرغون لكتابة ما يمليه . واختص به نفرٌ من المُجوِّدين يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه إجازات السماع والرواية ، لمن يسمع منه ويستجيزه . وفي كتاب (الإنصاف والتحري) لابن العديم ، فصل في ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبي العلاء ، منهم :

• ولَدا أخيه أبي المجد محمد :

« أبو محمد عبد الله بن محمد » وكان برّاً بعمِّه ملازما لخدمته والكتابة له . ويقع بخطِّه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد وليَ قضاء المعرة على كُرهٍ من عمه . وكان مولده بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ ، ووفاته بها سنة ٤٦٥ هـ .

و « أبو الحسن علي بن محمد » : تولى قضاء المعرة وقضاء حَماة سنة ٤٥١ هـ بعد اعتزال أخيه القاضي أبي محمد عبد الله .

وقد نسخ بخطِّه جميعَ أمالي عمِّه أبي العلاء .

---

(١) في : مسالك الأبصار .

* وابنُ أخيه أبي الهيثم : « الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد » المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

* وولدُه « منافر بن زيد » وقف بخطِّه كتبا من تصانيف عمِّ أبيه ، « تدل على فضله وحسنِ نقله » .

* « جعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داود بن المطهر التنوخي » وكان من أعيان كُتاب أبي العلاء .

وقرأ عليه كثيرا من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خَطه على غاية من الصحة والضبط » .

* « ابراهيم بن علي بن الخطيب » اشتهر بالضبط والإتقان وإجادة الخط . كتب معظم تصانيف أبي العلاء ورسائله . كما كتب عنه في السماع عليه والإجازة عنه .

* « أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم المعري» وكان « من العُدول الأُمناء الفضلاء . تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان . ولزم أبا العلاء وكتب مصنفاته بأَسرها . وربما كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، غاية في الضبط » .

* وولده « أبو الفتح محمد بن علي » ، وكان كوالده « ملازماً لخدمة أبي العلاء والكتابة له » . . . . .

وقد اعترف « أبو العلاء » بجميل كُتابه ، فذكر في بعض شِعره ابنَ أخيه أبا محمد القاضي ، شاكرا له صادق بِره وكريم فضلِه ، وإياه عَنَى بقوله :

وقاضٍ لا ينام الليلَ عـــني وطول نهاره بين الخصوم

وقال فيه ، وذكر أمَّه :

أعبدَ الله مـا أسدى جميـلا
نظيرَ جميلِ فعلك غير أُمـي
سقتني دَرَّهـا ودعت وباتـت
تعوذني ، وتقـرأ أو تسمـي
هممتَ بـأن تجنبني الرزايـا
فرُمتَ وقـايتي من كـل همِّـي
كـأن الله يلهمـك اختيـاري
فتفعله ، ولم يخطـر بوهمـي
حمدتك في الحياة أتـم حمدٍ
وأيـامي ذممـتُ أتـمَّ ذمِّ
أجِدَّكَ ما تركت وأنت قـاضٍ
تعهُّدَ مُقعـدٍ أعمـى أصـمِّ

****

كما ذكر بالحمد والثناء والدعاء ، كاتبه « أبا الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم » فقال :

« لزمتُ مسكني منذ سنة أربعمائة . واجتهدتُ أن أتوفرعلى تسبيح الله وتمجيده إلا أن أضطر إلى غير ذلك . فأمليتُ أشياء وتولى نَسخَها الشيخُ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته . فألزمني بذلك حقوقا جمة وأياديَ بِيضا ، لأنه أفنى فيَّ زمنَه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنَه. والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء ».

أما ولده « أبو الفتح بن علي » فقد صنف أبو العلاء كتابا باسمه عنوانه : (المختصر الفتحي) كما اختصه بكتابه (عون الجُمَلِ) ـ آخر كتاب أملاه . وفيه شرحٌ لبعض ما في (كتاب الجُمل : لأبي إسحق الزجاجي) .

وسجل شهادته لبني أبي هاشم ، بالأمانة والورع والثقة والضبط ، في (رسالة الضبعين) التي كتبها إلى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو إليه فيها تحريف رجُلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) ليتهماه بالإلحاد . قال :

« وفي حلبَ حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب ـ اللزوميات ـ بخطوط قومٍ ثقاتٍ يعرفون ببني هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحَبل الورَع متمسكة ، جرت عادتهُم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أُحضِرتْ ـ النسخ ـ ظهرت الحُجة بما قلت فيه » .

****

واشتهر من تلاميذه :

* أخوه الأديب الشاعر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، وابنه زيد .
* القاضيان عبد الله وعلي ، ابنا أخيه أبي بكر محمد .
* « أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي » .

وهو من أقران أبي العلاء . وقد لقيه ببغداد وكان صاحبا له وصديقا طولَ مقامه بها . وإليه أرسل أبو العلاء القصيدة التائية التي مَرَّت في « حديث الإياب » :

يا عارضا راح تحدوه بوارقـه
للكرخ سُلِّمتَ من غيثٍ ونُجيتا
لنا ببغداد مَن نهوى تحيتَـه
فإن تحملتَهـا عنـا فحُيِّيتـا
يا ابنَ المحسِّن ما أُنسيتُ مكرمةً
فاذْكرْ مودتَنا إن كنت أُنسِيتـا
. . . .
بَتَّ الزمـانُ حبالي من حبالِكمُ
أعزِزْ عليَّ بكونِ الوصلِ مبتوتـا
أَعُدُّ من صلواتي حفظَ عهدِكمُ
إن الصلاة كتاب كان موقوتـا

• « أبو زكريا الخطيب التبريزي » من أعيان القرن الخامس . وقد رحل إليه وأطال المكث عنده . ووصلتْ إلينا نسخة موثقة من (رسالة الغفران) مقابلة على النسخة التي كتبها التبريزي بخطه .

• « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني » من فضلاء العصر . قصد إلى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه إلى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتاب « ضوء السقط » شرحا لديوان سقط الزند .

• « نصر بن صدقة القابسي النحوي » رحل إلى المعرة ولزم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه ديوانه (سقط الزند) وكتب منه نسخة جيدة . (١)

(١) في (بغية الوعاة) للسيوطي، أن ابن صدقة لما عاد إلى مصر قدم الديوان إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي فأعجبه نظمه .

ومن تلاميذه أيضا :

- الإمام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأَبهر .
- والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأَنصاري الأَندلسي .
- والخليل عبد الجبار القزويني .
- وأَبو طاهر محمد بن أَحمد الأَنباري .
- وأَبو الحسن علي بن همام .

. . . .

ولم يقبل قط أن يأْخذ على العلم أَجرا . بل إنه كان يود لو أَن موارده المالية المحدودة احتملت ضيافة تلاميذه وقاصديه . وما سُمع في المرحلة الثانية من عمره ، يشكو من ضيق ذاتِ يدِه ، إلا لقصوره عن الوفاء بما عدَّه حق الضيافة وزكاة المروءة . فكان ، فيما نقل القفطي والذهبي : « يتأَوه من ذلك ويعتذر إلى قاصديه » .

وحاول مع ذلك أن يقتر على نفسه في القليل الضئيل من رزقه ، ليوفر من إيراده المحدود ما يؤدي به زكاة مروءته .

ذكر « ابن العديم » أن أَبا العلاء « كان لا يقنع بالدفع إلى مَن يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من إيراده الضئيل شيئا لأُولي الحاجة ممن يتردد إليه » .

ثم نقل بإسنادٍ عن الخطيب التبريزي ، قال : « كان المعري يجْري رزقا على جماعة ممن كان يقرأُ عليه ويتردد لأَجل الأَدب إليه » .

كما روى ابن العديم ، وجادة ، مما قرأَه بخط أَبي الفرج محمد

ابن أحمد بن الحسن ، الكاتب الوزير ، في وصف رحلته إلى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبي العلاء :

« وله مَعاشٌ يكفيه ويمونه . وأولادُ أخٍ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له . ووراق برسمه مستأجَر . ثم ينفق على نفسه من دَخل معاشِه نفقة طفيفة . وما يفضُل عنه يفرقه على اللائذين به وفقراء القاصدين له من الغرباء »[1] .

وقد أبت عليه مروءته أن يقبل من تلميذه « الخطيب التبريزي » نفقة إقامته التي طالت عنده . وفي الخبر أن الخطيب « كان ـ عند وصوله إلى أبي العلاء قد أعطاه صُرَّة فيها ذهب ليدفعها إلى من يختار ، كي ينفق منها على ما يحتاج إليه من طعام ، ويتوفر هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهيأ لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذَهبه الذي دفعه إلى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه ، دفع إليه صرته بعينها لم تُمس »[2] .

****

واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب ، عددٌ من أعلام العصر : إما بالرحلة إليه كالكاتب الوزير أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن ، والرحالة الفارسي ناصر خسرو ، وعزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب للحاكم بأمر الله ، موفدا منه لحمله إلى مصر .

وإما عن طريق المراسلة . واشتهرت رسائله إلى بعضهم ، مثل :

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٧٥/ تعريف .

(٢) ابن العديم : الإنصاف والتحري ٥٧٦ / تعريف .

(رسالة الغفران) أملاها ردًّا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبي « علي بن منصور ، المعروف بابن القارح »[1] .

(رسائله إلى داعي الدعاة) أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران . ردّاً على رسائل تلقاها منه ، يجادله في امتناعه عن أكل اللحوم وإيذاء الحيوان . . . .

وكتب إليه عدد من الأُمراء والولاة ، يسألونه تشريفهم بتصنيف كتبٍ برسمِهم . وأجاب دون أن يقبل من أحدهم أجرا .

أذكر من هذه التصانيف :

(الصاهل والشاحج)

و (لسان الصاهل والشاحج) على لسان فرسٍ وبغل . و (القائف) ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

ألف الثلاثة ، للأمير « عزيز الدولة شجاع بن فاتك » والي حلب من قِبَل المصريين ، في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر .

(الرسالة السندية)

و (رسالة العرض)

ألفهما لسند الدولة الكتامي ، والي حلب من قبل المصريين أيضا .

(اللامع العزيزي) في تفسير شعر المتنبي .

ألفه للأمير « عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح » .

(عبث الوليد)

---

(١) تجد نص رسالة ابن القارح ، مع (رسالة الغفران) في طبعة الدخائر . وانظرها مع بحث نقدي موسع في : (جديد في رسالة الغفران) . نشر : دار الكتاب العربي بيروت ، ١٩٧٢ .

على نسخة من شعر أبي عبادة الوليد البحتري ، كان « أبو اليمن المسلم بن الحسن ، صاحب الديوان بحلب » قد بعث بها إلى أبي العلاء ، فأعادها إليه مع (عُبت الوليد) مراجعة ونقدا وتصحيحا .

(شرف السيف)

عمله لأمير الجيوش « أنوشتكين » والي دمشق وحلب .

(الرياشي المصطنعي) في شرح ديوان الحماسة .

بعث به إلى مصطنع الدولة أبي غالب كليب بن علي ، وكان قد أرسل إلى أبي العلاء (ديوان الحماسة) مع شرح أبي رياش . وسأله أن يخرج في حواشيها ما لم يفسره أبو رياش .

(رسالة الإغريض)

كتبها إلى ذي الرياستين « أبي القاسم الحسين بن علي المغربي » وكان قد سيَّر إليه كتابه الذي اختصر فيه « إصلاح المنطق لابن السكيت » .

(سجع الحمائم)

ألفه لبعض الرؤساء إجابة لطلبه ، وهو على لسان حمامة ، في العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة .

إلى جانب ما ألَّفه للأصدقاء وذوي الحاجة ، ممن سألوه أن يزودهم ببعض مؤلفات في موضوعاتٍ يحتاجون إليها . منها :

(سيف الخطبة)

فيه نماذج لخُطب الجُمَعِ والعِيدين ، وأدعية الاستسقاء والكسوف والخسوف . على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .

(ضوءُ السقط)

شرح لديوانه سقط الزند ، وضعه لتلميذه أبي عبد الله محمد الأصبهاني .

(المختصر الفتحي)

و (عون الجُمل)

عملهما لأَوْلَدِ كاتبه أبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن علي .

(الظل الطاهري) في النحو .

عمله لأبي طاهر المسلم بن علي ، من أفاضل الحلبيين .

(الجلى والجلى)

سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين وأعيانهم . مقداره عشرون كراسة .

(تاج الحُرَّة)

في عِظات النساء بخاصة . صنفه لإحدى الجليلات من النساء . قال ابن العديم : « ويغلب على ظني أنها : طرود ، زوج ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسة »[1] .

(شرح خطبة أدب الكاتب)

عمله لأبي الرضى سالم بن الحسن الحلبي . وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء .

. . . .

ولم نذكر الحشد الكاثر من الزائرين ، ومن الأصدقاء الذين تبودلت

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٩/ تعريف .

بينهم وبينه الرسائل الإخوانية أو اللغوية والأدبية ، على مدى ما يقرب من نصف قرن ...

مع كل ذلك الاتصال بطلاب العلم وأعيان العصر ، لزم مسكنه لم يبرحه حتى آخر العمر . وقد حاول « الحاكم بأمر الله الفاطمي » أن يحمله إلى القاهرة – مع مَن جلب إليها من علماء الدولة الإسلامية في زمنه – لما بلغه من واسع علمه ورسوخ درايته . وفي خبرٍ نقله الجلال السيوطي في (بغية الوعاة) أن « نصر بن صدقة القابسي توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة . فلما عاد إلى مصر قدمه إلى الحاكم [بأمر الله الفاطمي] فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة » .

وذكر « ابن العديم » أن « الحاكم » أمر وزيره عليّ بن جعفر بن فلاح أن يكتب إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب أعمالها ، بحملِ هذا العالم إلى مصر ليبني له بها دارَ علمٍ يكون متقدما فيها . على أن يُسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير ، نهض من فوره وسار إلى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ عليه الكتاب . فاستمهله ريثما أملى إلى الوزير الفلاحي رسالة مطولة ، يستعفيه بها من كل ما عَرض ، وينفي ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره من عدم إجابة الطلب ، على ما به من شوق إلى الحَضْرة ، ومجالسة من في دار العلم بمصر من السادات الكبراء [1] .

---

(١) في « الإنصاف والتحري » : ٥٧٠ – وقابله على رسالته إلى الوزير الفلاحي ، في « رسائل أبي العلاء » : ص ٥٩ / مرجليوث .

وأنقل هنا من رسالته إلى الوزير :

« ما اعتزلتُ حتى جددت وهزلتُ فوجدتُني لا أصلح لجدٍّ ولا هزل ، فعندها رضيت بالأَزْل .

« ما حمامة ذاتُ طوق يُضرب بها المثل في الشوق ، كانت في وكر مصونٍ بين الشجر والغصون ، تألف من أبناء جنسها ريدا فيتراسلان تغريداً ، مسكنُها نعمان الأَراكِ تأمن به غوائل الأشراك ، وتمر في بكرتها بالبيت الحرام لا تفرق لمكانِ صائدٍ ولا رامٍ ، فغرَّها القدرُ إذ لم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض المحرَّمة فأصبحت وهي جدٌّ مغرمة ، صادها وليدٌ في الحِلِّ ، ما حفِظ لها من إلٍّ ، فأودعها سجنا للطير ومنعها من كل مير ،

بأشوقَ إلى المعيشة مني إلى تلك الحضرة . ولكنْ صنَع الزمانُ ما هوَ صانع ، واعترض دون الخير مانع ... الموردُ نميرٌ أزرق ، ولكن المدنف بالشرابِ يَشرَق :

لما رأى لُبَدُ النسورَ تطايـرت
رفع القوادم كالفقير الأعـزلِ

انهضْ لُبَدُ ! هيهات ، صدَّك الأبَدُ .

وإن العامة عهِدتني في صدر العُمر أستصحب شيئا من أساطير الأولين فقالت : « عالم » والناطقُ بذلك هو الظالم . ورأتْني مضطرا إلى القناعة فقالت : « زاهد» وأنا في طلب الدنيا جاهد . وزاد تقوُّل القوم عليَّ حتى خشيتُ أن أكون أحد الجُهال الذين ورد فيهم الحديث المأْثور : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض

العلم بموتِ العلماء . حتّى إذا لم يبق عالِم اتخذ الناسُ رءُوساً جُهالا ، فسُئلوا فأَفتوا بغير علم فضلوا وأَضلوا » .

« ... وكيف يتأَدى العلم إليَّ وأنا رجل ضرير ، وكفى من شرٍّ سماعُه ، ونشأْتُ في بلدٍ لا عالم فيه ... ولم أَكن صاحب ثروة فكيف الحُداءُ بغير بَعيرٍ والإِنباضُ مع فقد التوتير ؟ فإن بلغ سيدي الشيخَ أَن سارى الليلِ قبض على سُهيلٍ ، وأَن الأَرض أنبتت وشْياً وحريرا ، والسحاب أَمطر مداما وعبيرا ، فهو أَعلمُ بردِّه على المبطلين ...

« لهفي على فواتِ هذه المنزلة ! ...

من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف يُنتدب للقاءِ السادات الكُبَراء ؟

لقد أَسمعتَ لو ناديت حيّــاً
ولكن لا حيــاة لمن تنــادي

« هل آمل من الله ثوابا ، وإنما أَنا كقَتلى بدرٍ أَسمع ولا أَملك جوابا ؟ ولمثل هذه الرتبة سهر من أَهل العلم الساهرون : « يا ليتني كنت معهم فأَفوز فوزا عظيما » .

« وعزيز الدولة يُعين الكسيرَ بالجبر ، فكيف يأْمر بإخراج ميِّتٍ من قبر ! ... »

****

لنا أَن نقول إذن : إن عزلة أَبي العلاء وإن لم تسلم له على النحو الذي أَراد ، فإنه التزمها من ناحيته فلبث رهين محبسيه حتّى مات . وكان الناس هم الذين أَصروا على أَن يقتحموا عليه عزلته ، فشَغلوه وشُغلوا به ..

على كرهٍ منه ...

وكان أحيانا يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأْربٌ لقاصدٍ أو مُنتَجَعٌ لرائد ، أو كما قال في اللزوميات :

يزورني القومُ ، هذا أرضُه يَمَنٌ
من البلاد وهذا دارُه الطبسُ
قالوا سمعنا حديثا عنك قلت لهم
لا يبعد الله إلا معشرا لبِسوا
يبغون مني مبنىً لست أُحسِنـه
فإن صدقتُ عرَتْهم أوجُهٌ عَبُسُ
ماذا تريدون ؟ لا مالٌ تيسر لي
فيُستماح ولا علمٌ فيُقتبس
أنا الشقي بأني لا أُطيق لكم
معونةً ، وصروفُ الدهرِ تَحتبِسُ

****

وطالما اشتهى الوحدة التامة ورأى فيها الراحة العظمى المرجوة لمثلِه في دنياه ، والطهارةَ من دنَس العصر ولؤم أهله :

هذا زمـان ليس في أهلـه
إلا لأن تهجـره أهـلُ
حان رحيـلُ النفس عن عالَم
ما هو إلا الغـدر والجهـلُ

****

في الوحدةِ الراحةُ العظمى فأَحْيِ بها
قلباً ، وفي الكونِ بين الناس إثقالُ

****

ظهارةُ نفسي في التباعُد عنكم
وقربُكمُ يجني همومي وإدنـاسي

****

من لي بأَني وحيـدٌ لا يصاحبني
حيٌّ سوى اللهِ ، لا جِنٌّ ولا إنسُ

****

بنو الوقتِ إن غرُّوك منهم بحكمةٍ
فما خلفها إلا غرائـزُ جُهَّـالِ
لذاك سجنتُ النفسَ حتى أَرحتَها
من الإنس ما أَخلاه ربع بـإخلال
إذا ما حللتُ الجدبَ فردا بلا أَذى
فسقيا له من روضةٍ غير محـلال

****

وما باختياره كان يلقى زوَّاره .

ولا باختياره كذلك كان انسحابه من دنيا ، لم يخرج إليها برأْس مالٍ ، وقرارٌ بالعزلة والانفراد ، حمله عليه عجزُه عن احتمال نُكر العصر وفساد المجتمع . وإنه ليقول مع ذلك في اجتماعية الإنسان كلماتٍ جَرَتْ مجرى الأَمثال ، كقوله :

الناسُ للناس من بدوٍ وحاضرةٍ
بعضٌ لبعض . وإن لم يشعروا خَدَمُ

****

ولـو أني حُبِيتُ الخُلـدَ فـردا
لمـا أحببتُ بالْخلـد انفـرادا
فلا هطلتْ عـليَّ ولا بـأرضـي
سحائـبُ ليس تنتظـم البـلادا

****

صَائِمُ الدهر

أَنا صائم طول الحياة وإنما
فِطري الحِمامُ ، ويومَذاك أُعيِّدُ

****

ووجدتُ نفسَ الحرِّ تجعل كفَّه
صِفرا ، وتلزمه بما لا يلزمُ

أَبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

* * *

ذلك ما قد كان من أَمره مع العزلة ،

فماذا عن تزهده وحرمانه من متع الحياة الدنيا ؟

كان أمرها - فيما يبدو - محتملا ، حيث استطاع أن يبقى على الحرمان ما عاش : لبث إلى آخر عمره لم يتزوج ، وأَمضى نحو نصف

obeikandl.com

قرن « طعامه البقلُ ، ولباسُه خشن القطن ، وفراشُه سجادتُه : من لباد في الشتاء ، وحصير البردي في الصيف » ...

أجمع على ذلك مؤرخوه بغير استثناء .

وشهدت به آثاره التي أملاها في طور عزلته .

وكان له إيرادٌ يسير يأتيه من وقفٍ له ، مقدارُه بضعة وعشرون دينارا في السنة ، « يدفع نِصفَه أجراً لخادمٍ ووراق . ويقيم أوَدَه بالنصف الباقي » .

وعلى هذا النحو ، حدَّد إيرادَه ومصروفه ، في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة .

فإذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بأدنى ضرورات العيش ، تخلَّى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبَى أن يلتمس زيادةً في رزقِه من أي سبيل .

أو كما قال في شيخوخته العالية . من رسالته الأولى إلى داعي الدعاة :

« ولست أريد في رزقي زيادة ، ولا أوثر لسُقمي عيادة » .

وكما رفض في بغداد قبول ما عرضه عليه البغداديون من أموالهم عرضَ الجِد ، أبَى بعد عزلته أن يقبل عطاءً من أي مخلوق ، ولو كان أجراً على مُصَنَّف يُطلَب منه . وقد مرَّ من حديث « رهين المحبسين » خبرُه مع « الحاكم بأمر الله الفاطمي » حين أراد أن يحمله إلى مصر لما سمع من علمه « على أن يُسمَح له بخراج معرة النعمان طول حياته » فأبى واعتذر .

ويذكرون كذلك في تاريخه ، « أن المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر – ٤٢٧ هـ – بذل له ما ببيت المال في معرة النعمان ، فلم يقبل منه شيئاً »[1] .

****

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من امتناع عن أكل اللحم واللبن والبيض وإيذاء الحيوان ، وأصر على القناعة بما تنبت الأرض من بقلٍ ، على الرغم من إنكار مجتمع عصره لهذا المسلك ، واتخاذه ذريعة للطعن والتجريح والاتهام .

وتشهد الرسائل التي تبودلت بينه وبين المؤيَّد داعي الدعاة « أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران العلوي » على ما أجهد أبا العلاء في شيخوخته من عُنف الخصومة على موقفه ، وعنَت الجدال فيه ، وعلى ما تكلف من مشقة وعناء ، كي يبرر مسلكه .

كان أبو العلاء قد قال من قصيدته اللزومية :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقَني
لتسمع أنباء الأُمور الصحائح
فلا تأْكلَنْ ما أخرج الماءُ ظالما
ولا تبغ قوتا من غريضِ الذبائح
ولا تفجعنَّ الطيرَ وهي غوافل
بما وضعتْ ، فالظلم شرُّ القبائح

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٦٥/ تعريف .

ودع ضَرَبَ النحل الذي بكرَتْ له

كواسبَ من أزهارِ نبستٍ فوائح

فما أحرزتْه كي يكون لغيرها

ولا جمعتْه للندى والمنائح

مسحتُ يدي من كل هذا فليتني

أبهت لشأني قبل شيب المسائح

****

ماذا ؟ هل نسي الشيخ أن الله تعالى أحل لعباده صيد البر والبحر ، وأحلّ زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق ؟

كلا ، لم ينس ذلك قط ،

لكنه لم ينس كذلك الآية المحكمة ، خطابا للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبَك من الدنيا».

ـ القصص ٧٧

المجتمع الإسلامي هو الذي أُنسِيَ بأوضاعه الفاسدة ، ابتغاءَ الدار الآخرة ،

بل أُنسِي كذلك ، فيما استحل من زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، أن يميز بين حلال منها وحرام ، بين طيِّبات وخبائث ، فما عاد يُذكَّر إلا بأن الإسلام أحلَّ زينة الحياة الدنيا ، وأن الطيبات من الرزق لا تعني نقيض الخبائث ، وإنما تعني ما لذَّ وطاب !

وسيطر على الناس من استعبدتهم الشهوات ، فغدا المسلم منهم

مريض العقل بما غفل عنه من داء الشهوة المتلف ولعنة الترف الوبيل ، مريض الدين بما استباح من غير الطيبات من الرزق ، وما ضل عنه من ابتغاء الدار الآخرة .

وإذ اضطربت الموازين وضلَّت السبُل ، وآلت زينة الحياة الدنيا إلى تهالك بشع على المُتَع الحسية وتناحر على التكاثر في الأموال والأولاد ، وضَرِيت أمراض الأثرة والحرص والطمع والنفاق والقسوة ، فماذا على الشاعر الشيخ وقد نجا بعقله ودينه من عبودية الشهوة وذل الطمع ولؤم النفاق ، إذا خطر له أن يوصي المَرْضى بمجاهدة شاقة ، سدّاً للذرائع ؟ وأن يندم على ما فات من عمره الأول ، حين كان يُقبل على الدنيا كما يقبل سائر الناس ، فلقي من أشر الشباب وجموح الرغبات ما أمرَضه وأضناه !؟ أوَلا يوصي الطبيبُ مَرضاه بالحِمية ؟

لكن عصره المريض الموبوء ، لم يكن بحيث يحمل أبيات الشاعر على هذا النحو اليسير القريب ، فما إن تناقلها الناسُ وبلغتْ مركز السلطة الحاكمة في مصر ، حتى تلقفها داعي دعاتهم ،ووجدها فرصة سانحة ليكف من غلواء هذا الشيخ الساكن في بلدة من إقليم الشام ، الخاضع للأُسرة الفاطمية بمصر ، وما فتئ يجهر بكلمات خطرة على النظم الحاكمة ، ويوشك بمسلكه العجيب أن يفتن الناس عما ألفوا من أوضاع .

وإذ قال الشاعر الشيخ في قصيدته :

غدوت مريض العقل والدين فالقَني

لتسمع أنبـــاء الأُمـــور الصحائح

فليكن داعي الدعاة ، ذلك المريض الذي يلتمس لدى طبيب العقل والدين : البرء والشفاء !

وكتب إليه فيما التمس ...

وبدأ المتمارض . بالعقل ، فسأله عن العلة في تحريمه على نفسه أكل اللحم واللبن . « سؤال من يعرف أن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق . فهي مسخَّرة له على أنواع من التسخير ، ولولا ذلك لكان موضوعُ الحيوان باطلا . فتجافِي الشيخ ، وفقه الله ، عن الانتفاع بما هو موضوعٌ له مخلوق لأجله ، إبطال لتركيب الخلقة » .

وانتقل إلى الدين ، فقال :

« ثم امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين :

إما أن تأخذه رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي أن يكون أرأف بها من خالقها . فإذا ادَّعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان من بعض البشر ، يعني به أصحابَ الشرائع ، وأن الله لم يُبِح إراقة دمِ حيوانٍ وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله : وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها اللهُ سبحانه على صيغةٍ لا تصلح إلا لِنَتْش اللحوم وفسخِها وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائمَ العين ـ المشاهدة ـ في الفِطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم ، وكان مَن أحَلَّ لهم ذلك محقا .

« والثاني ـ من أمرين لا يخلو القصد من أحدهما ـ أنه يرى سفك دم الحيوان خارجا عن أوضاع الحِكمة ، وذلك اعتراضٌ منه على خالقه

الذي أوجده ... » .

هكذا ، خرجت القضية من مجاهدة صائم وتأملات شاعر ونصيحة حكيم مجرب إلى مجادلة كلامية في نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق !

وردَّ أبو العلاء ، محاولا أن يخرج الموضوع من هذا المجال الكلامي الذي أُقحم عليه ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تزهدا ورحمة :

« ... وقد علم الله أن سمعي ثقيل وبصري عن الإبصار نقيل . قُضِي عليَّ وأنا ابنُ أربعٍ لا أُفرِّق بين البازلِ والربع . ثم توالت مِحَني فأشبه شخصي العودَ المحني ...

« وأما ما ذكره السيد الرئيس الأجل المؤيَّد في الدين ، فالعبدُ الضعيف العاجزُ يذكر له مما عَناه طَرَفا ، فأقول : إن الله جلَّت عظمته حكم عليَّ بالإزهاد فطفقت من العدم في جهاد . وأما قول العبدِ الضعيف العاجز :

• غدوت مريض العقل والدين فالقَني •

فإنما خاطب به من هو في غمرة الجهل ، لا مَن هو للرياسة عَلَمٌ وأصل . وقد عَلِمَ أن الحيوان كلَّه حساس يقع به الألم ... ولم يزل مَن يُنسَب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لأنها لم يوصَل إليها إلا بإيلام الحيوان ... وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشيةَ من الوجد والناقةَ إذا فقدت الفصيلَ . فقال قائلهم :

فما وجَدت كوجدي أُمُّ سقبٍ
أضاعته فرجَّعت الحنينا

وعرض الشيخ لاختلاف العلماء في الشر والخير ، « وهذه عقدة

قد اجتهد المتكلمون في حلِّها فأَعوزهم »

ثم قال :

« فلما بلغ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأَقوال – في الشر والخير – وبلغ ثلاثين عاما ، سأَل ربّه إنعاما . ورزقه صومَ الدهر فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين ، وصبر على توالي الجديدين . وظن اقتناعَه بالنبات يُثبت له جميلَ العافية .

« ومما حثني على ترك أَكلِ اللحوم ، أن الذي لي في السنة نيف وعشرون دينارا ، فإذا أَخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي لي مالا يعجب ، فاقتصرت على فولٍ وبلسن ، وما لا يعذُب على الأَلسن ... ولست أُريد في رزقي زيادة ، ولا لسُقمي عيادة . والسلام » .

****

وطالت بينهما المكاتبة وطالت المجادلة .

حتى بدا لداعي الدعاة أَن يُبطل حجتَه في الامتناع عن أكل اللحوم لفقره ، فكتب إليه :

وقد كاتبتُ مولاي تاج الأُمراء – ثمال بن صالح . والى حلب للفاطمية – أَن يتقدم بإزالة العِلة ، فيما هو بُلغةُ مثلِه من أَلذ الطعام ، ومراعاته به على الإدرار والدوام ، ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجري في أمر معيشته على أَحسن ما يكون من الصورة ... » .

أَلذ الطعام ؟

ذلك ما فهموه من «طيبات الرزق » الحلال ، غير الخبائث !

وداعي الدعاة لا يعرضه على الشيخ في صورة اقتراح ، بل يُعلمه

بأن الأمر قد تقرر ، وصدرت به مكاتبة إلى والي حلب ، ليعيِّن لأبي العلاء « ما هو بلغة مثله من ألذ الطعام ، ويجري في أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة » .

وإنه لَعلى يقينٍ أن بُلغة مثله كسرةُ خبز تقيم الأَود ، وأن قصارى حاجته من المعيشة ، ثو ب من خِشن القطن ، وسجادة من لباد أو حصير البردي .

هو إذن أمرٌ يراد أن يُحمل عليه أبو العلاء ، ممن يملك سلطة الأمر .

وردَّ أبو العلاء :

« ... وأما ما ذكره من المكاتبة في توسيع الرزق عليَّ ... فالعبدُ الضعيف العاجزُ ما له رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركُها صار له عادةً وطبعا . وإنه ما أكل شيئا من حيوان ، خمسا وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك عاداتِه
حتى يوارى في ثرى رمسِه »

ونص عبارته ، يحدد لتاريخ الرسالة خمسا وأربعين سنة ، منذ بدأ مجاهدته عام ٤٠٠ هـ .

أي أنه كان في نحو الخامسة والثمانين من عمره ، حين أُجهِد بهذه الخصومة الكلامية .

ولم يقبل داعي الدعاة اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح في مجادلته ليُعنته . وعاد أبو العلاء يحاول أن يرد القضية إلى وضعها الصحيح ، من حيث هي مجاهدة في الزهد والتعفف والرحمة ، مستشهداً بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الأئمة الصالحين ، من القناعة بالقليل ،

وإيثار أهلِ الحاجة بما يفضل منهم . ثم قال لداعي الدعاة يرد على إيمائه المريب :

« وقد عدل سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم . ولو أُخذ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألا يصلي صلاة إلا ما افتُرِض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أدَّاه إلى كلفة ، واللهُ تبارك وتعالى لا يريد ذلك ! ولوجب أن الذي له مال كثير . إذا أخرج عن الذهب رُبع العُشر ـ زكاةً ـ لا يَحسُن أن يزيد على ذلك ! وقد حُثَّ الناس على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف » .

****

وإذا كان داعي الدعاة قد أفلح بتمارضه في جرِّ أبي العلاء إلى المناظرة ، وأعنته بجدله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع الشيخ بالرجوع عن رأيه ومسلكه ، أصرَّ عليهما بقية عمره . وأعلن هذا الإصرار جهرة في رسالته الرابعة إلى داعي الدعاة . ابن موسى بن أبي عمران .

قال إنه : « قد رضي أن يلقى الله جلَّت قدرتُه ، وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِد .. » .

أجل ، يلقى الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل فيه ناسٌ من شر وإثم وظلم وبغي ، وما اقترفوا من كبائر الفواحش . وإن أصناف الحيوان فيما قال : لأولى بالرأفة ، وهي لم تشرب من الإثم بذَنوب ، ولم تجنِ ما يُكتب من الذنوب » .

****

ولقد جادله آخرون في هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأساً

من إقناعهم بأن مجاهدة النفس بالزهد والتعفف والرأفة ، ليست من الكبائر ! وأن الامتناع عن أكل لحم الحيوان ، لا ينبغي أن يُناقَش دينا ، ممن يستحلون أو يسكتون على أكل لحوم الناس وأعراضهم وأموالهم بالباطل ، وأن الامتناع عن شرب اللبن الحلال ، لا يجوز أن يحاسِب عليه باسم الإسلام ، مجتمعٌ غارق في دِنان الخمر والفجور ، عاكف على مجالس اللهو والطرب والشراب ...

كلا ، لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره ، حتى النفس الأخير .

في الخبر أنه مرِض فجاءوه بطبيب راعه هُزاله فوصف له لحم فروج غذاءً ، وأتَوه به فلمسه وقال :

« استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شِبلَ الأسد ؟ »

وأبى أن يذوقه ، وصدقت كلمته :

أنا صائم طـولَ الحياة وإنمـا
فِطري الحِمامُ ، ويومَذاك أُعَيِّـدُ

السِّرُّ المُذاع

وقال الفارسون : حليف زهدٍ
وأخطأَت الظنــونَ بما فرَسْنَه
ورُضتُ صعابَ آمالي فكانت
خيولا في مراتِــعها شَمَسْنَه
ولم أُعرض عن اللذات إلا
لأَن خِيارَها عني خنَسنــه
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

****

لِمدىً ، نصفِ قرنٍ إلا قليلا ، أخذ أبو العلاء نفسه بأَقسى ضروب الزهد وأَشق التكاليف ، وراضها على احتمال ما فرَض عليها من حرمان صارم ،

فهل كان ذلك عليه هينا ؟

كلا ! بل إنه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف والقسوة ، فإن يكن شق على نفسه بأقسى مما تطيق ، فقد لبث الى آخر العمر عاجزا عن أن يقهر في نفسه حبَّ الدنيا أو يرتاح بالسلو عنها واليأس منها !

قد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن الرجل « انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطئها بقدميه ، وقد انصرفت نفسه عنها » [1] .

وما ننكر أنه لم يكف عن ذم الدنيا ولَعنِها ، لكنه كذلك لم يكتم الشكوى مما رسخ في نفسه من حُبِّها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وحاجاته الغريزية المقهورة !

وحين انسحب منها إثر إيابه من بغداد ، لم يكن يبغي أكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عزت عليه راحة الأمل فيها .

ولم « يطأها بقدميه » كما زعموا :

وإنما اتجهت محاولته إلى قهر ما في فطرته من شغف بالدنيا ، بهذه الرياضة القاسية والمجاهدة الصارمة .

ولسنا نقول في هذا برأيٍ ، وما ينبغي لنا ، بل الكلمة فيه لأبي العلاء .

وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثار

---

(١) ناقشت هذه القضية بمزيد تفصيل في الفصل الأول من « الغفران : دراسة نقدية » وفي « الحياة الانسانية عند أبي العلاء » . الكتابان نشرتهما دار المعارف بالقاهرة .

الشطر الثاني من حياته .

وظل يقولها إلى أن استراح بالموت من عذاب المكابدة !

فلنُصغ طويلا إليه وحده ، لعل صوته ينفذ إلى أعماق وجداننا فينسخ بصدقه ما رسبَ في هذه الأعماق من أقاويل عنه ، ويكشف لنا عن عالمه النفسي ، لنراه على حقيقته ، وراء الظلال التي مسخَتْه أو حجبته .

ولنبدأ معه (بالفصول والغايات) التي بدأ يُمليها إثر انسحابه من بغداد إلى محبسه بمعرة النعمان ، وفيها جؤارُ مَنْ حرقهُ الظمأُ ، ولهفة على راحة من اليأس لا تبدو قريبة المنال .

« إنما أنا رجلٌ بُلِيَ بالصدَى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو ظمآنُ أبدا ! إن وَرَد غروفا وجده مضفوفا ، وإن صادف نزوعا أعوزته الآلةُ والمعين ... » (١)

« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتْك الحالية ! والنفسُ عنكِ غيرُ سالية .. » .

« بي طبٌّ فأين أستطب ، وأنا تحت حُبِّ الدنيا محِب ، أثقلني فأنا مُكِبٌّ .. » (٢) .

« زُوِيتْ عني الدنيا فأسِفت ، وأشفقتُ لذلك وخفت ، وأحببت

---

(١) الصدى : أشد الظمأ لا يرتوي . الغروف : البئر قريبة المتناول والورد ، يغترف ماؤها في يسر . المضفوف : على ضفافه زحام الواردين .

النزوع : البئر الصعبة المورد ، ينزع ماؤها بأشد العسر .

(٢) طب : داء . أستطب : أطلب الطب وألتمس العلاج . محب : راغب .

لها وشنفت . ولو أنصفتُ لعِفْتُ ما أستوبله فما نثفت »[1] .

« رضيت بالحضَضِ على مضضٍ »

«لا أكتمك ـ مولايَ ـ ما أنت به عليم : إن أسفي على الدنيا طويل»...

« أُحِب الدنيا كأنها تحبني ، والغريزة عن الرشدِ تذبُّني ... »

« أُحبُّ الدنيا وآلتُها ليستْ فيَّ ! وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوُّفُ والضلال ؟ » .

****

وقال في (اللزوميات) من شعر ما بعد الإياب من رحلة التحدي والمقاومة :

وصدقتُ هذا العيشَ في حـبي له
واغترني بخداعـه وكذابِـه
عذبٌ يعذبـني البقـاءُ وللـردى
يوم يخلص من فنـون عذابـه

****

نحنُ البريَّة أمسى كلُّنـا دَنِفـاً
بِحُب دنيـاه حُبا فوق مـا يجبُ

****

وكلكمُ يُبـدي لدنيـاه بغضـةً
على أنه يخفي بهـا كمدَ الصبِّ

****

(١) أستوبله : أجده وبيلا .

لو أن عشقك للدنيا لـه شبـح
أبديتَه ، لملأْتَ السهـلَ والجبَلا

****

شَقينا بدنيانـا على طـول ودِّها
فدونَك مارسْهـا حياتَك واشقَها
ولا تُبدِيَنَّ الزهـد فيها فكلنـا
شهيد بأَن القلب يُضمر عِشقَها

****

أَيها الدنيا لحـاكِ اللـــه من رَبَّةِ دَلٍّ
مـا تسلَّى خلدي عنـــكِ وإن ظن التسلِّي

****

أُشرِبتُ حبَّك لا يَنفيه عن جسدي
سوى ثرىً لدماءِ الإنس شرَّابِ

****

صحبتُ عيشاً أُعانيـه ويغلبـني
مثل الوليد يقود المصعبَ السدِمَا
وقد ملـلتُ زمانـاً شرُّه لهـبٌ
إذا دنا لخبوٍّ عـاد فاحتدمـا

****

تنازعـني إلى الشهـوات نفسي
فلا أَنـا منجح أَبـداً ولا هي !

****

أقمتُ برغمي ، ومـا طـائري
براضٍ إذا أَلِفَتْـه الوُكـون
ولي أمـل كأتـمِّ القَنَـا
وحـالٌ كأقصـرِ سهم يكـون

****

إلـهَ الأنـام وربَّ الغمـام
لنا الفقرُ دونَـك والملـكُ لـكْ
إذا أنـا لم أغْـنَ في لـذةٍ
أسفـتُ وضـاقَ عـليَّ الفَلَكْ

****

أبى القلبُ إلا أُمَّ دَفرٍ كمـا أبـى
سوى أُمِّ عمروٍ موجَعُ القلبِ هائمُ
هي المنتهى والمشتهى ، ومع السها
أمانيُّ منهـا دونهـن عظائـمُ

****

نفسي بهـا ونفوسُ القومِ مُلهجةٌ
ونحن نخبر أنَّـا لا نباليهـا
أمرتَـني بسلوٍّ عـن خوادعِهـا
فانظر ، هل أنت مع السالين ساليها ؟
ولا ترى ، الدهرَ ، إلا مَن يهيم بها
طبْعاً ولكـنْ باللفـظِ قاليهـا

. . . . . .

قد يقال إنه كابد هذا الشغفَ بالدنيا في مستهل عهده بالعزلة والحرمان . ثم برىء منه على تطاول الزمن .

لكن من أبيات اللزوم ، ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من ظمأ .

في الخمسين ، شكا ظمأه وجدبَ حياته :

علقت بحبلِ العيش خمسين حجة
فقد رثَّ حتى كاد ينصرم الحبل
وهل ينفع الطلُّ الذي هو نازل
بذات رمالٍ عندما جَحَدَ الوَبْلُ

وبعد أن جاوز الخمسين من عمره :

أسيرُ عن الدنيـــا وما أنـــا ذاكـــر
لها بسلامٍ إن أحداثَها خُمْس
صرورة ما حالين : ما لكعابِهـــا
ولا الركن ، تقبيلٌ لديَّ ولا لمسُ
لعمري لقد جاوزت خمسين حجة
وحسبي عشر في الشدائد أو خمس
وأجهر حينا ثـــم أهمس تـــارة
وسيان عند الواحدِ الجهرُ والهمس

****

بلى لدينا من شعر اللزوميات كذلك ، شواهد على ما ظل يكابده في مشيبته من عجزٍ عن راحة اليأس وخمودِ اللهب في أعماقه . وقد نعلم

أنه وإن أحس بوادر الشيخوخة في كيانه إبانَ رجولته قبل الإياب من بغداد ، فإن شيب شعره تـأَخر طويلا عن أوانه ، بـشاهدٍ من صريح قوله في اللزوميات :

أيا مفرقي هلا ابيضضتَ على المدى
فما سرَّني أن بتَّ أسودَ حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيهُ لونـه
بفود الفتى ، والله يعلـم ذلكا

وكان يدنو من الستين ، حين أرسل يعتذر إلى صديق ببغداد كاتبه بعد عشرين حولا من إيابه ، فذكره بعهد مودتهما :

مُـدَّ الزمـانُ وأَشوتْني حوادثُـه
حتى مللت وذمت نفسي العمرا
وحُلت كليً سوى شيبٍ تجـاوزني
ولم يُبيِّض على طول المدى الشعرا
جنيت ذنبا وأَلهى خاطري وسَنٌ
عشرين حولا ، فلما نُبِّه اعتذرا

****

فلنصغ إلى أنين عذابه من حب الدنيا ، ومقهور أشواقه ، بعد أن شاب في الشيخوخة العالية :

ولي أملٌ قد شِبتُ وهو مضاجعي
وساودني قبـل السواد ومـا هَمَّا

****

لِأَمواهِ الشبيبة كيف غِضنه
وروضات الصبا كاليبس إضْنَه
وآمالُ النفوس مُعلّلاتٌ
ولكن الحوادث ينتقضنه
فلا الأَيام تفرغ من أذاة
ولا المهجات من عيشٍ غرضنه

****

بَلِيَ الحبلُ والغزالةُ فوق الأَر
ضِ لم يَبْلَ خيطُها المغزولُ
وأنا العَوْدُ ، قلبُه أَضمر الشو
ق ، ولكن ظهرَه مجزولُ

****

تباركت يا ربَّ العُلا أَنت صُغتَها
فليتَك في أَرزائها لم تُبارِكِ
أعانقها عند الوداع تشبثا
وكيف وداع بين قالٍ وفارِكِ

****

وحق ما قال : كيف وداع بين قالٍ وفارِك ؟

ذلك هو أَعجب ما في أمره مع الدنيا .

قلاها ونفرت منه فاركا مبغضة ما أَقبلت عليه قط . وأَعياه مع قسوة مجاهدته أَن يبرأَ من دائها المقيم ، وأَن يقهر ما في بشريته من

تعلق فطريٌ بهذه الدنيا على مرارة كأسها .

****

من مرحلة الشيخوخة أيضا ، جاءتنا (رسالة الغفران) .

أملاها حوالي سنة ٤٢٤ هـ وهو في الستين من عمره – بعد أن أمضى نحو ربع قرن في معركة – المجاهدة – ردًّا على رسالة تلقاها من « ابن القارح ، علي بن منصور الحلبي » وهو أديب معاصر لأبي العلاء ، وينسب إلى حلب بحكم مولده . على أنه نزح منها مطوفا بالآفاق يلتمس رزقه من حرفة الأدب . وقد انقطع حينا إلى خدمة « آل المغربي » بالقاهرة ، حين كانت لهم القيادةُ والرياسة والوزارة في الدولة الفاطمية ، وبقي في خدمتهم يصوغ فيهم مدائحه إلى أن غدر بهم « الحاكم بأمر الله » فعقَّهم ابن القارح وتسلط عليهم بأفحش الهجاء . وكان قد أسرف على نفسه « في الملذات البهيمية » فلما جاوز السبعين وهنت قواه واعتزم الإياب إلى حلب التماسا لراحة الاستقرار في شيخوخته العالية ، بعد أن طال طوافه بالبلاد وتنقله ببضاعته من الأدب ، من سيِّد إلى سيِّد . فبدا له أن يمهد لمقامه في حلب ، بالكتابة إلى أديبها الأكبر وعالمها الحكيم ، عن غير تعارف شخصي سابقٍ أو لقاء .

وطبيعي أن تعبر «رسالة الغفران» عن شخصية صاحبها . وأن تلائم في الوقت نفسه شخصية من كُتِبتْ له وأُرسلت إليه .

والشخصيتان على طرفي نقيض ، شكلا وجوهرا وحياة وخُلقا وسلوكا بحيث شق علينا طويلا أن نميز في رسالة الغفران بين ما هو من ملامح شخصية أبي العلاء بكل نبله وعفته وحرمانه ومجاهدته ، وما هو

من ملامح شخصية ابن القارح ، بكل شهوانيته ونفاقه وزيفه .

في الغفران يُطل أبو العلاء من دنياه على أخراه ، ويطيل التأمل في عالم بعيد يلوح له في رؤياه ، مشحونا بهمومه وأشواقه ، وهواجسه ومخاوفه .

وعالَمه الآخر ، لا يمكن أن يكون في رؤياه ، إلا عالمَ أديب لغوي ناقد ، مقيد ضرير محروم :

فيه عقد ما شاء من مجالس الأدب ومواقف النقد . واصطفى مَن أحَبَّ من شعراء ولغويين ، فلقّن ابن القارح ما يريد أن يسألهم عنه أو يناقشهم فيه ويحاسبهم عليه . وإذ تعذر عليه أن يجد لبعضهم وسيلة إلى دخول جنته ، مضى بابن القارح في رحلة إلى جحيم الغفران ، ليلقاهم هنالك ...

وفي عالمه الآخر ، التمست أشواق بشريته تنفيسا وريا . والقيود التي شلّت حركته نحو نصف قرن ، جعلته يحلم بكسرها والتحرر منها . فملأ جنته بالحركة والصوت والرقص والغناء . وقد تعنف الحركة فتصير عراكا وعربدة ، ويصخب الصوت فيصير صياحا ومنافرة وجلبة .

ومن أهل جنته من يخرج للنزهة والصيد والزيارة ، وفيها تقام المآدب الحافلة بأشهى الأطعمة وألذ الأشربة ...

وأبو العلاء الذي ملَّ السكون وتعب من الكبت ، هو الذي يريد لأهل عالمه الآخر أن ينفعلوا بالغضب والرضى ، والصد والإقبال .. وأن تجوز عليهم أهواءُ البشرية وأعراضها ، من تشوف وحنين وعجب ،

وغرور وعقوق وشماتة ، ونسيان وغفلة .

ولا شك عندنا في أن محنته هي التي اقترحت عليه « عملية التعويض » عن محن الدنيا ، في رؤيا عالمه الآخر : فليس يكفيه أن يصير الأعشى أحور ، والأعمى بصيرا ، والهرم شابا ، وإنما يُعوض الذي امتُحن في الدنيا بعاهة أو بلوى ، تعويضا لا يقترح مثله سوى ضرير مبتلى محروم : فأحدُّ أهل جنته بصرا ، هم الذين حُرموا نعمة البصر في الدنيا ، وأجملهم عيونا « عورانُ قيس » وأطيب نسائها نَشْرا امرأة كانت في الدنيا تدعى « حمدونة الحلبية » طلقها زوجها ، بائع السقط من المتاع ، لرائحةٍ كرهها من فمها . وأنصعهن بياضا أَمَة تدعى « توفيق السوداء » كانت تخدم في دار العلم ببغداد ...

****

أما إسرافه في حشد المتع الحسية وتشخيص الشهوات واللذات المادية ، فنُقدر أن شهوانية ابن القارح هي التي وجهت أبا العلاء إلى أن يتفنن له في حشد ما يعلم أنه يرضي مزاجه ويلائم هواه .[1]

غير أنا نقدر كذلك ، دلالة هذا التفنن والإسراف ، على نفسية المحروم وأثر القيود على وجدانه في صومه الطويل .

****

تلك هي رؤيا رهين المحبسين لعالمه النفسي الذي غيَّبه عنا رواج أقواله في ذم الدنيا . فنسينا أو أُنسِينا بها ما أفضى به من مكابدته

---

(١) هذه العقدة في المعادلة الصعبة بين شخصيتي أبي العلاء وابن القارح ، تناولتها بمزيد بيان في مدخل « جديد في رسالة الغفران » نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٢ .

لضغط بشريته المقهورة وأشواقه الفطرية الموءودة ، لا في خواطر الرؤيا وهواجس الأحلام فحسب ، بل فيما جهر به من اعتراف بصريح اضطراره ، وما أذاع من مطويِّ سِرِّه :

تحسر على امتناع الدنيا عليه .

ولم يكتم هذه الحسرة على عقم حياته وانقضابه بالحرمان من الولد . وإن حاول التسلي بأن هذا الحرمان يعفيه من أن يرزأ ولداً له بمثل ما ابتلي به من محنة الوجود ، أو يُفجَع فيه بعقوق ، وثكل :

بصريح إقراره في اللزوميات :

إذا لم يكن خَلْفي كبيـرٌ يُضيعه
حمامي ، ولا طفلٌ ، ففيم حياتي !
وما العيش إلا عِلة برؤهـا الردى
فخلِّي سبيـلي أنصرف لطيـاتي

****

ألَا فكَّرت قبل النسل في زمـنٍ
به حللتَ ، فتدري أين تلقيه !

****

لو أن بنيَّ أفضلُ أهـل عصري
لمـا آثرتُ أن أحظى بنسلِ
فكيف وقد علمـتُ بـأن مِثـلي
خسيس لا يجيءُ بغيـر فسلِ

****

ومَن رُزق البنين فغيـر نـــاءٍ
بذلـك عن نوائـب مُسقِمـاتِ
فمِنْ ثُكـلٍ يُهاب ومـن عقـوق
وأرزاءٍ يجئـن مصممـاتِ
وإن تُعطَ الإنـاثَ فـأي بـؤسٍ
تبين في وجـوه مقسمـات
ودَفْنٌ والحـوادثُ فاجعـاتٌ
لإحداهـن ، إحـدى المكرمات !

****

أرى ولَدَ الفـتى عبئـا عليـه
لقـد سَعِدَ الـذي أضحى عقيما
فإمـا أن يُربِّيَـه عـدوا
وإمـا أن يُخلِّفَـه يتيمـا
وإمـا أن يصادفـه حِمـام
فيبقـى حزنـه أبـداً مقيما

****

وصاح بالدنيا ، من أعماق وجدانه الجريح وعالَمه المحترق بنار الظلام :

وأصبحتُ في الدنيا غبينا مُرَزَّءاً
فأعفيتُ نسلي من أذاةٍ ومن غَبنِ

فإن تحكمي بالجورِ فـيَّ وفي أبي
فلن تحكميه في بناتي ولا في ابني
وأوقدتِ لي نارَ الظلام فلـم أجد
سَناكِ بطرفي ، بل سنانك في ضبني

****

وأذاع سره ، لم يكتمه ، معترفاً بأنه ما زهد في النساءِ عن طيب خاطر ، ومكذبا من قال إنه لا يتحسر على ما فاته منهن :

وإذا الفتى كره الغوانـي واتقى
مرضاً يعود ، وضرُّه ما يطعَمُ
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذبٌ
من قال عنه : يبيت وهو مُنعَّم

****

أوَانيَ هـمَّ فألقـى أوانـي
وقد مرَّ في الشرخ والعنفـوان
زوانيَ خوفُ المقـام الذميـم
عن أن أكون خليـلَ الزواني
وعنـديَ سِرٌّ بـذيء الحديثِ
كَنَتْ عنـه في العالَمين الغواني
إذا رَملـةٌ لـم تجيءْ بالنبـاتِ
فقد جهلتْ أنْ سقَتْهـا السواني

****

إني أُوارِي خُلَّتي فأُريهمُ
رِيّاً ، وفي سِرِّ الفؤاد أُوارُ

****

والمرءُ ليس بزاهدٍ في غادةٍ
لكنه يترقب الإمكانا

****

أُريد ليانَ العيش في دار شقوة
وتأبى الليالي غيرَ بخلٍ وليَّانِ
وما جبل الريان عندي بطائل
ولا أنا من خود الحسان بِرَيَّانِ

****

أسير عن الدنيا وما أنا ذاكر
لها بسلام إن أحداثَها خُمْسُ
صرورة ما حالين : ما لكعابها
ولا الركن ، تقبيلٌ لديَّ ولا لَمسُ

****

خُمورُ الرِّيقِ لسنَ بكلِّ حالٍ
على طُلَّابهن محرماتِ
ولكن الأوانس باعثات
ركابَك في مهالكَ مقتماتِ

****

أريـدُ الإنـاخـةَ في منـزل
وقـد حُدِيَـتْ لسِواه جِمـالي
فمَـن مُخبرِي : أغريـقَ البحا
رِ ألقى الردى ، أم دفينَ الوصال
هويت انفراديَ كيمـا يخـفَّ
عمَّن أعـاشر ثقـلَ احتمالي
أمـا لـيَ فيمـا أرى راحـةٌ
مدى الدهر من هذيـان الأَمالي !

****

ألـم ترني حَمَيْت بنـات صدري
فمـا زوجتهُن وقـد عنسنَـه
وقـال الفارسون : حليـف زهدٍ
وأخطأت الظنون بمـا فَرَسْنَـه
ورُضتُ صعـابَ آمـالي فكانت
خيولا في مراتِعهـا شَمَسْنَـه
ولم أعـرض عن اللـذاتِ إلَّا
لأَن خيارهـا عـني خَنَسْنَـهْ

****

أطارقَ هَمٍّ ضاف ، هل أنت عاذر
متى لم تجد لي عند مرتَحل طرقا

وأعوزني ماءٌ أُزيـل به الصدى
فلا عيش إن لم أشرب الكدرَ الطرْقا
وحُبِّيَ للدنيـا كحبِّـك خالصا
وفي عنُقينا من هوىً جَعَلَتْ رِبْقَا

****

لُبْتُ حـول المـاءِ من ظمـإٍ
إن غَربي مـا لـه مَـرَسُ
مُهجـتي ضِـدٌّ يحـاربـني
أنا مني ، كيـف أحتـرسُ

. . . . . .

ماذا كان عساه أن يصرح بأكثر من هذا ، لنحس معاناته الباهظة لما كاشفنا به في (الفصول والغايات) حين بدأ صيامه الطويل ؟

« أُحِب الدنيا وآلتُها ليست فيَّ ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوف والضلال » ؟

« إنما أنا رجل بُلي بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ... فهو ظمآن أبدا » .

إن تكن هذه الشواهد كلها ، ومثلها معها ، من أحلام الشعراء – وقياسُ أبي العلاء بهم مع الفارق الكبير – فكيف لا تعبر الأحلام عن العالم النفسي لشاعرنا الذي ما عهدنا عليه كذبا قط ؟ (١)

(١) اكتفيت هنا بإيراد الشواهد من كلمات أبي العلاء الكاشفة عن سره ، دون أن أتجاوزها إلى تفسير ، على نحو ما فعل أستاذنا الخولي .

ثم ، أليست من هذا الوادي ، أقواله الأُخرى في ذم الدنيا ومقتها ، تلك الأقوال التي رُوِّجت فينا وجُعلت وحدها مناط الحكم عليه ؟

هنا يرد السؤال :

فيم إذن كانت أقواله في مقت الدنيا والشكوى من شرها ولؤمها؟

والجواب بنص كلماته :

لأنه تمنى ، وقد أعوزته آلتُها ، لو أنه استراح بالصد عنها وسكن إلى يأسه من بلوغها ، فكان إسرافه في ذمها ، نوعا من الإلحاح في المجاهدة ، وحمل نفسه على الزهد فيما لا يُنال .

وأعياه مع ذلك أن يقهر ما رسخ في فطرته من تعلق بالدنيا وشغف بها ، فما استطاع أن يكتم ما يجد من لهاث الظمإ وحسيس النار المشبوبة في أعماقه ، والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاء فيه ولا راحة منه :

أمـا وفؤادٍ بـالغرام قريـح
ودمعٍ بـأنواع الهمـوم سريح
أليْلى ، وكلٌّ أصبح ابنَ ملـوح
ولبْنَى ، وما فينا سوى ابنِ ذريح
وليس لنا في مدة العيش راحـة
فكيف بموتٍ مـن أذاكِ مريحِ
وتعقِدُ سلوانَ الفتى عنكِ نفسُه
بأذيالِ برق أو ذوائب ريـحِ
وما زال في بلواكِ مذ يوم وضعِه
عليكِ ، إلى أن عاد رهنَ ضريح

طلبت شفاءً منكِ واهتجْتُ سائلا
بذاك أبـا سلمان وابنَ بَرِيح

****

من هنا كان عذابه وكانت مجاهدته .

لم يجد مدى الدهر راحة من هذيان الأماني .

ولا ظفر براحة اليأس من دنيا أحبَّها وآلتُها ليست فيه .

وبلغت به المكابدة أقسى مداها ، ففكر في الخلاص بالموت من محنة الوجود ، وحدَّد وسيلة هذا الخلاص بالإمساك عن الطعام والشراب ، لولا أن عزَّ عليه ذلك أيضا ، وحال دونه الإشفاق من التبعة ، والرهبة من غوائل السبيل .

فذلك قوله في (الفصول والغايات) :

« لو أَمِنتُ التَّبِعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة . ولكني أرهب غوائل السبيل ... » .

وألحت عليه الفكرة ، فقال في اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة
مخشية لاعتراهـا الناس أفواجا
وكان كل من ألقت الدنيا عليه أذى
يؤمها تاركـا للـعيش أمواجا
كأس المنية أولى بي وأروح لـي
من أن أعالج إثراءً وإحواجـا

****

وظلت تساوره ، لم تبرح خاطره ، وهو في الستين من عمره ، يملي من (رسالة الغفران) :

« قد كدتُ ألحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار.... ».

وكم تمنى لو أن أحداً باعه حياته بميتة سهلة ، فيتخلى له عنها غير نادم :

من باعني بحياتي ميتة سرحـــا
بايعته ، وأهـان اللهُ مَنْ ندمـا

لكن أحدا لم يملك أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك هو لنفسه أن يريحها بالموت من ضنك الحياة ، فلم يبق له إلا أن يلوذ بالله ضارعا أن يعجل بخلاصه من الدنيا ، وإنه تعالى لمرجوٌ أن يلطف به في الأُخرى ، بعد ما طال بلاؤه :

« حمدا لك إلهي ! لا أعلم وقتَ إسكانِك لي في دار البلاءِ ، وقد عشتُ فيها ما شئتَ وأعيش فيها ما تشاء . وأنا شاكٍ إليك أثقالَ الزمن ، فإذا قضيتَ عنها الرحلةَ فأَعِنِّي على تلك الغُصَص والغمرات ، فإني منها فَرِق ، وبي من الحياة ملل ... » .

« والطف مولاي بضعيفِك إذا اقترى ، ونزل في بطن الأَرضِ عن القرى . ضيفكَ ولكل ضيفٍ قِرى . ما أجدرك بالرأفة وما أحرى .. » .

(الفصول والغايات)

ويعلل نفسه بالأمل المرجو في دنو يوم الخلاص فينشد :

إذا غدوتُ ببطن الأَرض مضطجعا
فثَم أَفقد أَوصابي وأَمراضي

****

إذا طُفئت في الثرى أعين
فقد أَمِنَتْ من عَمىً أَو رمد !

. . . .

لكن انتظاره ليوم الخلاص يطول ، ويطول معه تعبه وعذابه فيئن شاكيا :

إن يرحل الناس ولم أرتحل
فعَنْ قضاءٍ لم يفوض إليّْ
خُلِّفت من بعد رجالٍ مضوا
وذاك شرٌّ لي وشر عليّْ

****

وما أقسى أن يكون الموتُ أملا للشاعر الذي عمق إحساسُه بمحنة الموت وجاءت مراثيه في أهله وأَصحابه ، مرثية للإنسانية المقودة برغمها إلى البِلى والعفَن ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم عاصم ، ولا تدفعه عنها حيلة طبيب أو رقية راق أو دموع أهل وتفجع أحباب !

وأَستدرك فأَقول إن الخلاص بالموت لم يكن أَمَلاً لأَبي العلاء ، بل كان من هذيان أَمانيه . فمع إشفاقه من التبعة ورهبته غوائلَ السبيل ، كان التعلق الغريزي بالحياة ، يشده إليها بأَغلالٍ تكذب الأَمل في الخلاص منها بالموت ، وذلك ما عرفه أبو العلاء من قديم دهره الأَول .

وقال وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، يرثي أباه :

وجَدنـــا أذى الدنيـــا لذيذا كأنما
جَنى النحل أصنافُ الشقاء الذي تجني
فما رغبتْ في الموت كُدْرٌ مسيرُها
إلى الوِرد خمسٌ ثم يشربن من أَجْنِ
يصادفن صقرا كـــلَّ يوم وليلـــة
ويلقين شرا من مخالبه الحُجْـــنِ
ولا قلقاتُ الليل باتت كأنهـــا
من الأَين والإدلاج بعضُ القَنا اللُّدْنِ
وخوفُ الردى آوى إلى الكهف أهلَه
وكلَّف نوحاً وابنـــه عمَـــلَ السفـــنِ
ومـــا استعذبته روح موسى وآدمٍ
وقد وُعِدا من بعده جنتي عَـــدْنِ
. . . . . .

فإن يكن عَجِبَ لهذا في دهره الأول ، وتساءل في مرثيته الدالية :

تعب كلهـــا الحيـــاة فمـــا أعـ
ـجبُ إلا من راغب في ازدياد

فقد استيقن رهين المحبسين من الجواب ، بعد أن طالت مجاهدته للدنيا ، وأضناه حمل نفسه على السلو عنها ، وعاد يتساءل في قنوط واستسلام :

مُهجتِـــي ضِـــدٌّ يحاربـــني أنـــا مني ، كيف أحترسُ ؟

****

الأديبُ الحرّ

أعــاذِل قد ظلمتنــا الملو
كُ ، ونحن على ضعفِنا أظلَمُ
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

* * *

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، ما لم نتحرر من فكرة انتصاره على الدنيا وزهده النفسي فيها ، بمجرد أن أعلن انسحابه منها .

إذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له » كما قرر الأُستاذ عبد العزيز الميمني [1] « وملأ قلبَه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما قال أُستاذنا الدكتور طه حسين [2] ،

(١) في كتابه : (أبو العلاء وما إليه) .
(٢) في : (تجديد ذكرى أبي العلاء) .

أو لو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه ، على ما شاع فينا وذاع ،

لما كان في سلوكه ما يغري بالوقوف عنده أو يحمل على شيء من تقديرٍ خاص . إذ ليس أهون عليه من حرمانٍ يستجيب لما في طبعه من زهدٍ فيما صدَّ عنه ، وعزوفٍ عما امتنع منه ...

وإنما كان سلوكه موضع تقديرنا وإجلالنا ، لأن الرجل استطاع مع حبه للدنيا وإقراره بالعجز عن السلو عنها ، أن يصبر على ذلك الحرمان الطويل الصارم ، فقدَّم لنا مثلا فذاً لبسالة المجاهدة ، وكشف عما يمكن أن تطيقه بشرية الإنسان من بطولة الاحتمال .

وإذا لم يكن قد أفلح في قهر حب الدنيا في نفسه ، فإنه قد استطاع أن يمضي في مجاهدته لها بإرادة عجيبة فذة ، وصمد للتجربة حتى آخر العمر ، على قسوة ما كابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وما لقي من عنت خصومه وجدل مناظريه ، وسخط مَن نقِموا عليه مخالفة الجماعة والخروج على سُنَنِها وأعرافِها .

وفي المبحث الذي مضى عن « مناخ العصر » ما يعطينا ملامح البيئة العامة التي عاش فيها أبو العلاء ، وما وصلت إليه من فساد وشر . وقد اعتزلها ولكنها لم تعتزله ، وانسحب منها لكنها شغلتْه وشُغِلت به . من ثَم ، لم يكن في طاقته أن يجمِّد إحساسه بشرور العصر ويعطل تفكيره في فساد المجتمع ، وإنه لفي عزلته ، وبها ، مرهف الحس يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

كلا ، ولا كان بقادر على أن يلجم لسانه ، وقد تحرر من قيود

الرغبة فيما لدى أي مخلوق ، والرهبة من ذي سلطان . وهو ما باع الدنيا على حبه الغريزي لها ، إلا لكي يشتري كرامة نفسه وحرية تفكيره وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذي يخونه سواه نفاقا ومراءاة .

وماذا عسى أن يفعل أو ينال منه ، الذين يكشفهم سلوكه العملي ، وتزعجهم كلمة حق يقولها احتجاجا ورفضا ؟

هل يحددون إقامته ؟

أو يمسكون عنه الرزق ويقطعون عنه صلة تأتيه من ذي جاه ؟

أو يؤذونه في عِرضه وبنيه ؟

لقد سد عليهم كل طريق :

حدد لنفسه الإقامة في محبسه لا يبرحه ما عاش .

وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يلتمس فيه زيادة عن إيراد الوقف الضئيل .

وليست له زوجة تثقله بعبء ومطلب أو تشغل باله بهمٍّ وفكر ...

ولا وَلد له يحمل همَّه ويجبن بسببه أو يخشى عليه أذى من متسلط ...

وإنه لنقيُّ العرض طاهر السلوك نظيف السيرة ، عفُّ اليد والجوارح والضمير .

فماذا بقي له عند الناس ، وقد انسحب من السباق وتخلى لهم عن الدنيا وما فيها ؟

باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى شرفه وكرامته وأمانته ،

في عصر أذلَّ الحرصُ فيه أعناق الرجال .

ووجَد رسالته النبيلة في انتظاره ، من يوم أن انسحب إلى محبسه احتجاجا عمليا على فساد البيئة وضلال المقاييس واختلال القيم ، وتكليفا صعبا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فهو وحده ، ولا أحد سواه ، مَن يجرؤ على أن يصدع جبروت الحُكام وطغيان الأُمراء والولاة وانحراف الساسة بمثل قوله :

مُـلَّ المقامُ فكـم أُعاشر أمـة
أمرت بغير صـلاحهـا أمراؤهـا
ظلموا الرعية واستجـازوا كيدها
وعدَوا مصالحها وهم أُجراؤهـا

****

لقد ساس أهلَ الأرض قوم تفتقت
أمورٌ فما ألفتْ لهـم يدَ راتِقِ

****

أمَـا لأميرِ هـذا المصيـرِ عقـلٌ
يقيم عن الطريق ذوي النجـوم
فكم قطعوا السبيـل على ضعيف
ولم يُعفوا النساءَ من الهجـوم

****

يكفيكَ حزنا ذهـابُ الصالحين معا
ونحن بعدهُمُ في الأرض قُطانُ

إن العراق وإن الشام مـذ زمـنٍ

صِفران ما بهما للمُلْـك سلطان

ساس الأنـامَ شياطيـن مسلطـة

في كل مصرٍ من الوالين شيطانُ

مَن ليس يحفل خمصَ الناس كلهم

إن بات يشرب خمرا وهو مبطان

تشابه النَّجْرُ : فالروميُّ منطقـه

كمنطق العُرب ، والطائيُّ مِرطانُ

متى يقوم إمـامٌ يستقيـد لنـا

فتعرفَ العـدلَ أجبـالٌ وغيطـانُ

صَلُّوا بحيث أردتم فالبلادُ أذى

كأنمـا كلهـا للإبـل أعطـانُ

****

أَلِفنـا بـلاد الشام إلفَ ولادةٍ

نلاقي بها سودَ الخطوب وحُمْرَها

. . . .

فإني أرى الآفاق دانت لظالـم

يغر بغاياها ويشرب خمرهـا

****

كـل الديـار ذميم لا مقـام به

وإن حللتَ ديار الوبْـلِ و الرهمِ

إن الحجاز عن الخيرات محتجَزٌ
وما تهامة إلا معـدن التهـم
والشام شؤم وليس اليمن في يمـنٍ
ويثربُ الآن تثريب على الفِهم

****

بكـلِّ أرضٍ أميـرُ سـوءٍ
يضـرب للنـاسِ شرَّ سكَّهْ
قـد كثـر الغش واستعانـت
بـه الأشداءُ والأركَّـه
فخلِّهـم والـذي أرادوا
وحُـلَّ بـالقدسِ أو بمكـه
صَكَّهـمُ الدهـرُ صـكَّ أعمى
تكتب أيـدي الفنـاءِ صكَّـه

****

يـا ربِّ أخرجني إلى دار الرضى
عجـلا فهـذا عالَـم منكـوسُ
ظلـوا كدائـرةٍ تحـوَّل بعضُهـا
من بعضِها ، فجميعُهـا معكوس
وأرى ملوكـا لا تحـوط رعيـةً
فعلامَ تؤخذ جزيـةٌ ومُكـوسُ ؟

****

يسوسون الأُمور بغيـر عقـل
فينفُذُ أمرُهـم ويقـال ساسَهْ
فـأُفٍّ من الحيـاة وأُفٍّ مـني
ومـن زمنٍ رئاستـهُ خَساسَـه

****

ظلـمُ مُستَضعَفٍ وأخـذ مكـوسٍ
وحيـاة في عالَـمٍ منكـوس

****

حكـم النـاسَ ولاةٌ مثلمـا
حكمت قبـلُ حَصـاةٌ وزلـم

****

أيـا واليَ المصـر لا تَظلِمَـنّ
فكـم جـاء مثلُك ثم انصرفْ
تواضـعْ إذا مـا رُزِقـتَ العـلاءَ
فذلـك ممـا يزيـد الشـرف
وإن ألبس اللهُ ثـوب الشفـاءِ
فـلا تؤثـرنَّ عليـه التـرف
تغيض الميـاهُ وقـد طالمـا
تيمَّمهـا واردٌ فاغتـرف
ومَـن أمَّنَتْـه خطـوبُ المنـونِ
تخوَّف مـن هـرمٍ أو خـرف

يقــارف مستكبرات الذنــوب
ويغفــل عن ذنبــه المقتــرفْ

****

قد أسرف الناس في الدعوى بجهلهمُ
حتى ادَّعوا أنهم للخلــق أربــاب
إلبابهُم كــان باللذات متصلا
طول الحياة ومــا للقــوم ألبابُ

****

لعمركَ ما في عالَم الأَرض زاهــدٌ
يقينــاً ولا الرهبانُ أهــلُ الصوامع
أرى أُمراء الناس يمسون شرهــم
إذا خطفوا خطــفَ البُزاةِ اللوامع
وفي كــل مصرٍ حاكمٌ فموفَّــق
وطــاغٍ يحابى في أخس المطامع
يجور فينفي المُلْــكَ عن مستحقه
فتسكب أسرابُ العيون الدوامع
ومن حوله قوم كــأَن وجوههم
صَفاً لم يُلَيَّنْ بالغيوثِ الهوامع
عدولٌ لهم ظلــم الضعيف سجية
يُسمَّون أعرابَ القرى والجوامع

****

مَن سوى رهين المحبسين ، يجرؤ على أن يحقِرَ كبرياء الأرباب ويسفه غرورهم ويفضح للرعية زيفهم بمثل قوله :

ومن شرِّ البريــة ربُّ ملــكٍ
يريد رعيــة أن يسجـدوا لــه

****

كذب الذي سَمَّى المملَّـكَ قاهرا
نحن الأذلــة والإلٰــهُ القاهــرُ
وكذاك يُدعى طــاهرا مَــن كلُّه
نجسٌ ، ويفقد في الأنــام الطاهرُ

****

تلقب مَلْكٌ قاهرا مــن سفاهــة
ولله مــولاه الممالــكُ والقهــرُ

****

لم أرْضَ رأيَ وُلاةٍ لَقَّبــوا
مَلِكــاً بمقتــدرٍ وآخــرَ قــاهرا
هذي صفاتُ الله جــلَّ جلالُــه
فالحقْ بمن هجرَ الغواةَ مُظاهِرا
كم قائــم بعظــاته متفقِّــه
في الدين ، يوجَدُ حين يُكشَفُ عاهرا
وعلمتُ قلبَ المرء يغرق في هــوى
دنياه ، خــاب مكاتمــا ومجاهرا

****

يُسمون بالجهـل عبـدَ الرحـيم
وعبـدَ العزيز وعبـدَ الصمـدْ
ومـا بلغوا أن يكونـوا لـه
عبيدا ، وذلـك أقصـى الأمدْ

****

إذا مدحـوا آدميًّـا مدحـتُ مولى الموالي وربَّ الأُمم
وذاك الغنيُّ عـن المادحيـن ولكنْ لنفسي عقدت الذمم
لـه سجَدَ الشامـخ المشمخـر م عـلى مـا بعرنينـه من شمَمْ
ومغفـرة اللـه مرجـوة إذا حُبِست أعظمي في الرمَمْ
مجـاور قـوم تمشي الفنـا ءُ مـا بين أقدامهـم والقِمَمْ
رأيت بـني الدهـر في غفلةٍ وليست جهالتهـم بالأَمَم
فنُسكُ أُنـاس لضعف العقو لِ ونسك أُناسٍ لبُعد الهمم

. . . . . .

وإذ لا يفجر الحكام وحاشيتُهم ، وفي الأُمة حُرَّاسها الأَتقياءُ الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر .

فمن غير هذا الضرير يفتح بصيرة الرعية على نفاق الشعراء وزيف محترفي التدين والعلم ونفعية أصحاب المذاهب :

فرقا شعرتُ بأنّها لا تقتني خيرا ، وأن شرارها شعراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حُبِّها وتقرأت لتنالها قراؤها

****

وما أَدَبَ الأَقوامَ في كل بلدة إلى الميْنِ إلا معشرٌ أُدباءُ

****

قد حُجِب النور والضياء وإنما ديننا رياءُ
وهل يجود الحيا أُناسا منطويا عنهمُ الحياءُ
يا عالَمَ السوءِ ما عَلِمنا أن مُصَلِّيكَ أتقياءُ

****

لا يكذبنَّ امرؤ جهول ما فيك لله أولياءُ
ويا بلادا مشى عليها أُولو افتقار وأغنياءُ
إذا قضى الله بالمخازي فكلُّ أهليكِ أشقياءُ

****

فُقدت في أيامك العلماءُ وادلهمت عليهمُ الظلماءُ
وتَغَشَّى دهماءنا الغيُّ لما عُطِّلت من وضوحها الدهماءُ
خلِّني يا أخي أستغفر الله فلم يبق فيَّ إلا الذماءُ
ويقال: الكرام قولا وما في الـ ـمِصْر إلا الشخوص والأسماءُ

****

رويدَكَ قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساءَ

يحارب فيكمُ الصهباء صبحـا
ويشربهـا عـلى عمـدٍ مساء
تحسَّاهـا فمن مـزج وصـرف
يُعَـلُّ كأنمـا وَرَدَ الحساء
يقول لكم غدوتُ بـلا كسـاء
وفي لذاتهـا رهَـنَ الكساء

****

يقولون في المصر العدولُ ، وإنمـا
حقيقة ما قالوا : العدولُ عن الحق

****

تسترـوا بأُمور في ديانتهـم
وإنمـا دينهم ديـنُ الزنـاديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم
والعقل أولى بإكرام وتصديق

****

مـا فيهـمُ بَـرٌّ ولا نـاسك
إلا إلى نفـع لـه يجـذب
أفضـلُ من أفضلهـم صخرة
لا تظلـم الناس ولا تكـذب
لعـل أُناسا في المحاريب خَوَّفوا
بآيٍ ، كناسٍ في المشارب أطربوا

****

تديُّــن غاويهــم حذارَ أميرهــم
فلما انقضت أيامه ، ذهب النسك

فأصبح من بعــد التمسك بالتقى
لأردانه من طيبِ فاجرةٍ مسك

وهل ينفع التمسيكُ والمسكُ تحته
خبيث نبيث والذي فوقه المسكُ

****

إذا رؤساءُ الناس أمُّــوا تنازعــوا
كئوسَ الأذى ، هل في الزجاجة عندمُ

ولم يرضهم شرب المدامــة أذهبت
حجى النفس ، إلا أن يمازجَها الدمُ

****

جهلتُ : أقاضي الريِّ أكثر مأثمــا
بما نصَّه ، أم شاعــر يتغــزل

وأعلم أن ابن المعلــم هـــازل
بأصحابه ، والبــاقلانيّ أهــزلُ

وقارئكم يرجو بتطريبــه الغِـــنى
فآض كمــا غنَّى ليكسب زلزلُ

****

أرجئــوا أو اعتزلــوا فــإني
عــن مقامكــم بمعـــزلِ

****

إنمـا هـذه المذاهـب أسبـا
ب لجلب الدنيـا إلى الرؤساءِ
غرض القوم متعـة لا يَرِقُّـــون لدمع الشماءِ والخنساءِ
كالذي قام يجمـع الزنج بالبصـــرة والقـرمطيّ بـالأَحساءِ
. . . . . .

ثم ، من غير أبي العلاء ، يجرؤ على أن ينغص عيش الظالمين ويؤرق بال المترفين بمثل قوله :

خِف دعوةَ المظلوم فهـي سريعـة
طلعت فجـاءت بالعذاب النازل
عُزل الأَميرُ عـن البلاد وما لـه
إلا دعـاءُ ضعيفهـا من عـازِل

****

لا شيءَ في الجـو وآفـاقـــه
أَصعَدُ مـن دعـوة مظلـــوم

****

خاب الذي سار عن دنياه مرتحلا
وليس في كفِّه من دينـهِ طرفُ
لا خير للمـرءِ إلا خيـرُ آخـرة
يبقى عليه فـذاك العز والشرف
نرجو السلامة في العقبى وما حسنت
أَعمالنا فيُرجَّـى الفـوزُ والغرف

ما بـان قوم عن الأُولى بما جمعوا
من الحطـام ولكن بالذي اقَّرفوا
يَعرى الفقيرُ وبالدينـار كسوتُه
وفي صوانك مـا أَعدادُه خرف !

****

والناس ضأن تساوت في غرائزها
يلقون بالأَرض كفا كلما افترعوا
ويدَّعي الرتبـةَ العليـا أَخسُّهـمُ
فما يجاب لهم داعٍ إذا ضرعوا
وأدركوا بدعاويهـم مدى زحل
من الرغام بما قاسوه أو ذرعوا

****

اتَّقِ الواحـد المهيـمنَ فاللهُ أَوَّلُ
إن قومـا لمـا يكو ن حرامـا تـأَولوا
رغَّبوا الناس في المحا لِ وراعوا وهوَّلـوا
ضربـوا في البلاد عصـرا فطافوا وجوَّلوا
خُوِّلـوا نعمة فلـم يشكروا ما تخولوا
واستطالت على الورى عُصَبٌ ما تطوَّلـوا
طلب الناقـد القليـلَ فمانوا وسولوا
ظلموا البائس الفقيـر وأَعطوا ونوَّلـوا
واستمالوا قلوب قو مٍ إلى أن تموَّلوا

obeikandi.com

فانظروا الآن فيهمُ أي غولٍ تغوَّلــوا

****

يُباين شكــلٌ غيــرَه في حياتــه
فإن هَلكا لم تُلْفِ بينهما فَرْقا
ومن يفتقد حال الزمان وأهلِــه
يذم بهم غربا من الأرض أو شرقا
يجد قولهم مَيْنا وودُّهم قِــلى
وخيرَهم شرا وصنعتَهــم خرقا
وبِشرَهمُ خدعا وفقرَهــم غِــنى
وعِلمَهمُ جهــلا وحِكمتَهم زرقا
إذا طلبوا أقصى العــلا اتخذوا له
بصُمِّ العوالي في ترائبكم طُرْقَا
إذا كنــتمُ أوراق أثلٍ زَهَوْا لكم
جَرَادَ نِبالٍ كي تبيدكــمُ ورقا
هم الناس : أجبال شوامخ في الذرى
وأودية لا تبلغ الأكم والبرقا
فسكرانُ يُستَرقَى ويبدل بسلــةً
وآخر صاحي اللب يُغضَب أن يرقى

****

عجبتُ وكم عجب في الزمــا
ن لرأي بــني دهــرِكَ الفائــلِ

فمقتا لما أورِثوا من غنى
وما وهبوه من النائل
فلا تمحلنَّ لهم مِنَّةً
ولو بِتَّ في صورة العائلِ
ألم ترني وجميعَ الأنا
م في دولة الكذب الذائلِ

****

. . . . . .

أجل ، كان أبو العلاء وحده ، هو الذي يستطيع أن يقول كلمة الحق في عصرٍ أخرست فيه السيوف والمطامع ، الألسنة والضمائر .

لقد تحرر بالمجاهدة من رغبة ورهبة ، لكنه لم يتحرر من تبعة الجهاد ، مقاومة للطغيان والفساد والنفعية ، والدفاع عن الجماهير التي أُهدِرت حرمتها وأبى عليه ضميره أن يكون في أُمته شيطانا أخرس :

فمالي لا أقول ولي لسان وقد نطق الزمانُ بلا لسان
وبيعت بالفلوس لكل خزي وجوه كالدنانير الحسان

****

الليالي مغيراتُ السجايا كم جعلن الزيفان شربَ عيوف
قد غدا القوم للنضار فنالو
ه ، وبِتنا ومَن لنا بالزيوف
أو لا يبصر الفتى الذهب الأَحـ
مرَ تُحذى به نعالُ السيوف !

. . . . . .

***

وربما خامره اليأس من جدوى احتجاجه الجهير على فساد الأوضاع ونُكر العصر ، وأرقه التفكير في احتمال عقم الجهاد بالكلمة الصادقة الحرة ، وبالانسحاب من دنيا القوم رفضا للشر والمنكر ، لكنه لا يلبث أن يدرك عجزه عن الفرار من تبعة الانتماء إلى الجماعة التي تُسام الخسفَ والهوان ، فلا مفر من التزامه بأمانة قضاياها ، في عصرٍ لم يكن فيه مجالٌ للتداعي بحق الجماعة ، واحتمال تبعة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعز الفرار وقد عم الفساد :

ماذا أفدتَ بأن أطلتَ تفكرا
فيها وقد أفنيت ليلَك ساهرا
وخمولُ ذكرك في الحياة سلامة
ودهاك مَن أمسى لذكرِك شاهرا
فتجنَّبَنْ متوافقين على الأذى
متخالفين بواطناً وظواهرا
وأخالُنا في البحر ليس بسالمٍ
منه الذي ركب الغوارب ماهرا
ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل
ملأُوا الديار ضواربياً ومزاهرا

****

وأين فراري من زماني وأهلِه
وقد غصَّ شراً نَجدُه والتهائم !

كلا ، لا مفر إلا بأن يخون أمانة الكلمة وهيهات ! وهَبْه التمس

في البحر مهربا من الفساد الذي عمَّ البرَّ ، نجدَه والتهائم ، فأنى له أن يفر من ضميره الحر ووجدانه المرهف ونفسه اللوامة ؟!

****

وإذا كانت الجماهير قد تبلد حِسُّها لطول ما أُلِفت من ظلم ، وفداحةِ ما تعرضت له من تغرير وتضليل وما تسلط على وجدانها من إلحاح في تبرير فساد الأوضاع وطغيان الحكام وضراوة الطبقية ، فإن أبا العلاءِ هو القادر على أن يُحس لها ما تغفل عنه ، المكلف من تلقاءِ نفسه اللوامة ، بأن يحدو مسراها في ليلها المدلهم ، ويؤرق غفلتَها وتبلدها لتؤثر الموت على أن تُمسخ آدميتها فتنحط إلى ما دون البهم والدواب ، وتعي مسئوليتها عن كل ما سِيمته من ضيم وهوان ، ومن خسف ومسخ :

لعل المـوت خيـر للبرايـا ... وإن خافوا الردى وتهيبوه
أطاعوا ذا الخـداع وصدقوه ... وكم نصح النصيح فكذبوه
وغيَّر بعضُهم أقوال بعـضٍ ... وأبطلت النهى ما أوجبـوه
فلا تفرح إذا رُجِّبـتَ فيهم ... فقد رفعوا الدنيءَ ورجَّبـوه
وبدَّل ظـاهرَ الإسلام رهـط ... أرادوا الطعنَ فيه وشذبـوه
وما يحدثْ فإنـا أهل عصر ... قليل في المعاشر منجبـوه
صحبنا دهرَنادهـراً ، وقِدْما ... رأى الفضلاءُ ألا يصحبوه
وغيظ به بنوه وغيـظ منهم ... فعـذَّب ساكنيه وعذبـوه
وهل تُرجَى الكرامةُ من أوانٍ ... وقد غلبَ الرجـالَ مُغلّبوه
وهل من وقتهم أبغى وأطغـى ... على أيِّ المذاهب قلَّبوه !

أَجَلُّوا مُكثِراً وتنصفوه ... وعابوا مَن أَقَلَّ وأنبوه
ولم يرضوا لما سكنوه شيداً ... إلى أن فضضوه وذهبوه
فإن يأكلهمُ أسفاً وحقداً ... فقد أكل الغزالَ مُربِّبوه
رجوا ألا يخيب لهم دعاءٌ ... وكم سأل الفقيرُ فخيَّبوه
ألظوا بالقبيح فتابعوه ... ولو أُمِروا به لتجنبوه
مضت أممٌ على شرخ الليالي ... إذا عمدوا لِعقدٍ أرَّبوه
وكم تركوا لنا أثراً منيفاً ... يعود بآيةٍ متأوِّبوه
لقد عمروا، وأقسمت الرزايا ... لَبئس الرهطُ رهطٌ خرَّبوه
فإما عاش فيه حاسدوه ... وإما غاله مُتكسِّروه
وللأَرَمَينِ خطب مستفيض ... بعوم بِلُجَّةٍ متعجبوه
ولو قدروا على إيوان كسرى ... لساموه الردى وتعقبوه
وقد منُّوا برزق الله جهلاً ... كأنهمُ لِباغٍ سبَّبوه
أُدِيلَ الشرُّ منكم فاحذروه ... ومات الخير فيكم فاندُبوه !

****

ويبلغ به الضيق بتبلد الجماهير أقصى المدى ، فيصب عليها من كلماته سوط عذابٍ من سخط وغضب ، ليحرمَها خَدَرَ التنويم ؛ ويصب في كأس ليلها قطراتٍ من مُرٍّ وعلقم ، لتفيق من سكر التضليل :

إن عذُب المَيْنُ بأفواهكم ... فإن صِدقي بفمي أعذبُ
طلبت للعالَم تهذيبَهم ... والناسُ ما صُفّوا ولا هُذِّبوا

****

obeikandl.com

اسكُتْ ، وخلِّ مُضِلَّهـم وشئونه
ليسوقَهم بِعَصـاهُ أو بحسامـه
نُصِحوا فما قبلوا . وباعوا كنْكَنا
من شرٍّ معدنِـه بقيمـةِ سامِه
فكأنهـا غنم تـرود إسامَهـا
مَن لا يبالي كيف حـالُ مسامِه

****

أما إذا دعا الداعـي لمكرُمـة
فهم قليلٌ ، ولكن في الأذى حُشُدُ

. . . . . .

ويقذف الجماهير بحُكمه الصارم :
أعـاذلَ قـد ظلمَتْنـا الملـو
كُ ونحنُ على ضعفِنا أظلَمُ

****

خصُومَة وَاتهَام

وقد نطقوا مَيْناً على اللهِ وافتروا
فما لهمُ لا يفترون عليكا !
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

***

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم ، يكشف عن غيِّهم وزيْفهم وضلالهم ؟

أوكان من المتصوَّر أن يُخلوا بينه وبين الجماهير المضَلَّلة ، يوقظ فيها الوعي ويمزق عن بصيرتها حجاب الغفلة ، ويُلهب وجدانها بالغضب والتمرد ؟

مِثل أبي العلاء – إن كان له مِثل – مَن يُعدُّ في نظر عصره ، وكلّ عصرٍ فاسد ، خارجا على المجتمع ، متمردا بسلوكه وكلمته على أوضاعٍ

مقررة ونظم سائدة وأعرافٍ مألوفة وموازين مُرَسَّخة . وليس من طبيعة الأشياء أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدي ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحدٍّ مقابل ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان ...

وإذ لا سبيل إلى زجره بحرمان أو إغرائه بعطاء أو عقابِه بحبسٍ وجوع أو الانتقام منه في زوج وولد ، فإن في عقيدته مَنفذا إليه من حيث لم يحتسب !

مستغلين في ذلك ، العاطفةَ الدينية للجماهير .

وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالةَ سوءٍ تجرح عقيدته ، حتى تصد عنه وتنكره ، إن لم تلعنه وترجمه ، دون أن تتريث لتتحرى التهمة أو تميز حقا فيها من باطل !

وليس من الضروري أن يكون خصومه في العلَنِ هم الذين يتصدون جهرا لتجريحه . حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام لا يُعرف مصدرُها ، ليتطوع بترويجها الحشد الكاثر من المتدينين العافلين السذَّج ، غضبا لدينهم . لا يتقون في ذلك ما حُجب عنهم من هَدْي الآية المحكمة :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بِنَبإٍ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بِجَهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين » ـ الحجرات : ٦ .

وقلَّ مِن أحرار الفكرِ والكلمة ، مَن لم يُتهم في عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرَّم على نفسِه ما أحل الله من طيبات الرزق وزينة الحياة الدنيا ، وجهر بأقوال تنم عن حيرته ، ومنها ما يستطاع تأويله بما يستفز الجماهير . وجهر بأقوال أخرى

صريحة التجريح لرجال الدين على اختلاف الملل :

فمن هنا يُمكن أن يُطعن !

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة في حياته ، وظلت تلاحقه بعد موته ...

وفيما مرَّ بنا من حديث رحلته إلى بغداد مدينة السلام ، كلام قيل عن مطاردةٍ من الفقهاء ، لبيتين قالهما في اليدِ ، دِيتُها خمسمائة دينار ، وتُقطع في السرقة ولو كان المسروق ربعَ دينار :

يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ وُدِيْـت
ما بالهـا قُطِعت في ربع دينار

تحكُّمٌ ما لنـا إلا السكوتُ لـه
وأن نعوذ بمولانـا من النـار

وإذا كنا ترددنا في قبول حكاية المطاردة ، فما أنكرنا أن البيتين من شعره في (لزوم ما لا يلزم) .

ويلقانا البيتان في موقف الاتهام ، من عصر أبي العلاء : ففي خبرٍ رواه « العيدروسي » في كتابه (النور السافر) أن الشريف الرضيَّ قال يرد على أبي العلاء :

صيانة النفس أغلتْها ، وأرخَصَها
خيانة المال فانظر حكمة الباري

لكن هذا البيت الذي عزاه « العيدروسي » في كتابه ، وهو في أخبار القرن العاشر ، إلى الشريف الرضي المعاصر لأبي العلاء في أواخر القرن الرابع ، جاء في « الصفدي » في (الوافي بالوفيات) معزواً إلى « الشيخ

علَم الدين السخاوي » الذي ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٣ هـ ! [١]

****

ويروون من أخباره ، عن القاضي أبي يوسف عبد السلام القزويني ، قال :

« قال لي المعري : لم أهج أحداً قط . فقلت له : صدقتَ ، إلا الأنبياء عليهم السلام . فتغير لونه » .

وعن القاضي المنازي ، قال :

« اجتمعت بأبي العلاء بمعرة النعمان ، وقلت له : ما هذا الذي يُروى عنك ويُحكَى ؟

فقال : حسدني قوم فكذبوا عليَّ وأساءُوا إليَّ . فقلت له : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

فقال : والآخرة أيها الشيخ ؟

وظل يكررها » [٢] .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة :

« ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلا » — — الإسراء : ٧٢ .

---

(١) بعد عصر أبي العلاء ، أورد « القفطي » بيته مع الشعر الذي يحتكم إليه « ليعلم ما يحكى عنه من إلحاده » .

وعلق « ياقوت الحموي » على البيتين ، بقوله في (إرشاد الأريب) :

« لأن المعري حمار لا يفقه شيئا ، وإلا فالمراد بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثُر سرقة ما دونها طمعا في النجاة (من حد السرقة) . ولو كانت تفدى (تودى) بربع دينار ، لكثُر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية . نعوذ بالله من الضلال» .

(٢) القفطي في (إنباه الرواة) والعباسي في (معاهد التنصيص) .

واحتمل أبو العلاء على مضض ، مفوِّضا أمره إلى خالقه سبحانه .
وموقنا أن مثل هذا البلاء ضريبة محتومة على من يتحدى العُرف العام .
فهيهات أن يسمح المجتمع لفردٍ أن يشذ عنه ويخرج عليه .
وهم بعدُ قد افتروا على خالقهم ،فأي عجب في أن يفتروا عليه .
كما قال لنفسه :

وقد نطقوا مَيْنا على الله وافتروا
فما لهمُ لا يفترون عليكـا ؟

ولقد كانت صلابته في الزهد والتعفف والتقشف ، مظنة أن تحميه من الظنة والريب ، لكنها ـ ويا للعجب ـ اتُّخِذَت ذريعة للطعن عليه من حيث لا يحتسب :

فالعصر الذي هضَم الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر ، كان له في الموقف رأي آخر :

أو لم يُحرم أبو العلاء على نفسه ما أحلَّ الله من طيبات الرزق وزينة الحياة الدنيا ، ويقنع بما يستره من خشن الثياب ، وما يقيم أوَدَه من ميسور النبات ؟

يمكن إذن أن يُعد الزهدُ إثما ، والقناعةُ خطيئة ، والصومُ عن اللذاتِ معصية .

ومثل هذا سائغ ، متى ضلَّت المقاييس ،فهانت الكبائرالمحظورات ، على من ينكرون الزهدَ في متاع الدنيا والرغبة عن لذاتها :

لعمري لقد عزَّ المباح عليكـمُ
وهان بجهلٍ ، ما يُصانُ ويُحذَرُ

وقد مضى القول في تمارض داعي دُعاة الفاطميين ، ليحرج أبا العلاء على الملإ من الناس ، وكيف أعنته في شيخوخته العالية ، بخصومةٍ مجهدة أخرجت القضية من نطاق السلوك الشخصي لزاهد متعفف ، إلى جدلٍ كلامي في حكمة الخالق ونظام الكون وترتيب الكائنات ومشكلة الخير والشر ...

ولعله أتعبه ، لكنه تعب منه دون أن يفلح في حمله على أن يتزحزح عن موقفه قيدَ شعرة ،

ومن قبل داعي الدعاة ، تعب مجادلو أبي العلاء وأتعبوه .

نقل « القفطي » في (إنباه الرواة) من حديث القاضي المنازي في حوار له مع أبي العلاء :

« قلت له : لم تمتنع من أكل اللحم ، ولم تلوم من يأكله ؟

فقال : رحمة للحيوان .

قلت : لا ، ولعمري بل تقول إنه من شَرَهِ الناس أنهم يجدون ما يأكلون ويتجزون به عن اللُّحمان ويتعوضون . فما تقول في السباع والجوارح التي خُلِقت لا غذاء لها غير اللحوم من الناس والبهائم والطير ، ودمائها وعظامها ، ولا طعام تعتاض به عنها ولا تتجزى به ، حتى لم يخلص من ذلك حشراتُ الأرض ؟ فإن كان الخالق لها الذي نقوله نحن ، فما أنت بأرأفَ منه بخلقه ولا أحكم منه في تدبيره . وإن كانت الطبائع المحدثة لذاك ، على مذهبك ، فما أنت بأحذق منها ولا أتقنَ صنعةً ولا أحكَمَ عملا حتى تُعطِّلَها ، ويكون رأيك وعملك وعقلُك أوفى منها وأرجح . وأنت من إيجادِها غير محسوس منها». والمنازي ،

هو مَن نُقِلَ عنه قوله لأبي العلاء : « على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة » ؟

لكن المنازي ، وداعي الدعاة من بعده ، لم يفلحا في هز إصراره العنيد على رفض دنياهم إنكارا لفساد الأوضاع ونُكر المجتمع ، « راضيا أن يلقى الله جلَّت قدرته ، وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِد » .

بنص كلماته ، وهو في الخامسة والثمانين من عمره ، من رسالته الأخيرة إلى داعي الدعاة .

****

وحاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه بأن يعيش كما يعيش أهل العصر ، ويخضع لنظم الجماعة وأعرافها ، وهو يبدي العذر عن رفضه ، أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس دون أن يستجيب لما أرادوا له . وإن الأمر بينه وبينهم لكما أملى في رسالته إلى « الوزير الفلاحي » معتذرا عن عجزه عن الخروج من محبسه إلى حضرة « عزيز الدولة ، شجاع بن فاتك » والي حلبَ للفاطمية بمصر :

« وقد غدوت في قوم قيل فيهم :

« تلك أُمَّةٌ قد خلَت لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون » .

****

وعَوَت الضباعُ في أثره ، تطارده حيث اختفى رهينَ محبسِهِ ،

وكأنها تعتفيه وتلتمس منه غذاءها :

قد استخفيتُ كالجسدِ الموارَى
ولكن الطوارق تختفيني
عفا أثري الزمانُ وما أغبَّت
ضباعٌ في المحلةِ تعتفيني

. . . . . .

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهوَنَ عليه مما آله وأضناه من افتراء المفترين : أساءُوا تأويل كلماته وحرفوها عن مواضِعها ، وزيَّفوا عليه ما لم يقله ، فأحوجوه – على ما يعلم من لؤم الناس – إلى أن يدافع عن نفسه بمثل ردِّه على « القاضي المنازي » حين سأله عما يُنسب إليه ويُروى عنه :

« حسدني قوم فكذبوا عليَّ وأساءُوا إليَّ » .

وعن « أبي اليسر المعري » قال :

« ان أبا العلاء كان يُرمى من أهل الحسد له ، بالتعطيل . ويعمل بعضهم على لسانه الأشعار يضمونها أقاويلَ الملحدةِ قصداً لهلاكه وإيثارا لإتلاف نفسه ... »

كما أحوجوه إلى حرص بالغ على توثيق أشعاره وأماليه وسائر مصنفاته ، لتكون مرجعا وحكَما فيما يؤاخذ به أو يؤخذ عليه . ولم يحل ذلك التوثيق دون إيذائه بالتزوير عليه عمداً ، مما اضطره إلى أن يملي (رسالة الضبعين) ويسيرها إلى أمير حلب « ثمال بن صالح » يشكو إليه فيها تحريف رجُلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) قصداً إلى

إهلاكه . ويسأله أن يرجع فيه إلى نسخ موثقة من الديوان في حلب ، مكتوبة بخطوط ثقاتٍ من كُتابه الأُمناء الأتقياء ، قال :

«وفي حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقاتٍ يُعرفون ببني هاشم ؛ أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ؛ جرت عادتهُم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أُحضرت - النسخ - ظهرت الحجةُ بما قلت فيه »[1] .

وكذلك استجاب لإلحاح أصدقائه وتلاميذه ، فأملى كتابه (زجر النابح) شرحا لما أُسيءَ تأويله من شعره في (لزوم ما لا يلزم) وأبطل فيه - كما يقول ابن العديم - « طعنَ المُزرِي عليه والقادح ، وبيَّن فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ، ووجه كلامه الفصيح . ثم أتبع ذلك بكتابٍ سماه (نجر الزجر) بيَّن فيه مَواضعَ طعنوا بها عليه بيانَ الفَجْرِ ، فلم يمنعهم زجرُه ، ولا اتضح لهم عُذرُه »[2] .

. . . . . .

****

وشاعت كلمة السوء فيه ، ومن شأنها أن تشيع فجُرِّح ببعضِ ما قال مما قد يوهِم ظاهرُه ويشكل ، وبغيره مما لم يقل . وان أكثر مصنفاته لفي الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه وتعالى . وديوان (اللزوم) نفسه مليء بنجوى إيمانه الصادق ، وأناشيد ضراعته للخالق ، جل جلاله ...

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٧/ تعريف .
وقد صرح ابن العديم بأنه وقف على (رسالة الضبعين) .
(٢) الإنصاف والتحري : ٤٨٥/ تعريف .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب ، بنقاءِ العقيدة ورسوخ الإيمان . وفيهم من كان قد استراب في أمره ، تأثرا بشائعات السوء ، ثم بان له من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين .

نقل « السلفي » بإسنادٍ إلى القاضي « أبي المهذب عبد المنعم السروجي» قال :

« سمعت أخي القاضي أبا الفتح يقول :

« دخلت على أبي العلاءِ التنوخي بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة ، بغير علم منه . وكنت أتردد إليه وأقرأ عليه . فسمعته وهو ينشد من قِيله :

كم بودرت غادة كعاب ... وعُمِّرتْ أمُّها العجوزُ

أحرزها الوالدان خوفا ... والقبرُ حرز لها حريز

يجوز أن تبطئ المنايا ... والخُلدُ في الدهر لا يجوز [1]

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى : « إنَّ في ذلك لايةً لمنْ خاف عذاب الآخرةِ ، ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ * وما نؤخِّرُه إلَّا لأجلٍ معدودٍ * يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقِيٌّ وسَعيدٌ » [2] .

ثم صاح وبكى بكاءً شديدا ، وطرح وجهَه على الأرض زمانا . ثم رفع رأسَه ومسح وجهَه وقال : « سبحان مَن هذا كلامُه » فصبرتُ ساعةً ثم سلمت عليه فردَّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعةَ. ثم قلت : أرى يا سيدَنا في وجهِكَ أثر غيظٍ . فقال : لا يا أبا الفتح ،

---

(١) الأبيات الثلاثة ، من شعر أبي العلاء في (ملقى السبيل) .

(٢) الآيات ١٠١ : ١٠٣ من سورة هود .

بل أنشدتُ شيئا من كلام المخلوق وتلوتُ شيئا من كلامِ الخالق ، فلَحِقني ما ترى !

فتحققت صحةَ دينهِ وقوة يقينه » .

وما رواه « السلفي » بإسناد إلى القاضي السروجي ، ذكره « الذهبي » في (تاريخ الإسلام) وابنُ حجر في (لسان الميزان) .

وليس بعيدا عن قول أبي العلاء في (رسالة الغفران) التي أملاها في نحو الستين من عمره :

« وأجمع مُلحدٍ ومهندٍ ، وناكبٌ عن المحجة ومُقتدٍ ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه ، كتابٌ بهر بالإعجاز... ما حُذِي قط على مِثالٍ ولا أشبهَ غريبَ الأمثال . ما هو من القصيد الموزونِ ولا الرجزِ من سهلٍ وحَزونٍ ، ولا شاكَلَ خطابةَ العربِ ولا سجعَ الكهانِ ذوي الأَرب . وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمُسِرَّة والبائحة . لو فهِمَه الهضبُ الراكدُ لتصدَّع ...

« وتلك الأمثالُ نضربُها للناسِ لعلهم يتفكرون » [1]

« وإن الآيةَ منه أو بعض الآية ، لَتعترضُ في أفصحِ كلِمٍ يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهابِ المتلألِئ في جُنح غَسَقٍ ، والزهرةِ الباديةِ في جدوبٍ ذات نسقٍ ، فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالقين » [2] .

****

---

(١) من آية الحشر ٢١ : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون».

(٢) (رسالة الغفران) : ٤٧٢ من طبعة الذخائر الخامسة .

obeikandl.com

وكانت بلبلة اضطرب لها الناسُ في أمرِه :

بين ما يعلمون من صلابته في الزهد والورع ويسمعون من أماليه وأشعاره في تمجيد الله وحده ، ومن شهادةِ من شهدوا له بصحة العقيدة وقوة اليقين ورسوخ الإيمان ،

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل اللهُ من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ويسمعون من قدحٍ فيه وتجريح ...

أو كما قال داعي الدعاة ، في رسالته الثالثة إلى أبي العلاء :

« ... فلما رمَتْ بي المرامي إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وفقه الله ، بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويلُ ووضح به البرهانُ والدليل . ورأيتُ الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين وفي أمرِه متبلبلين ، فكلٌّ يذهب فيه مذهبا . وحضرتُ مجلسا جليلا أُجريَ فيه ذكرُه فقال الحاضرون فيه غثّاً وسمينا ... » .

وبعض هذه البلبلة ، يكفي لصدٍّ عامة الجماهير عن أبي العلاء ، يتكلم فلا يلقون إليه بالا ولا يفقهون له قولا ، إن لم يصرفوا أسماعهم عما يهذي به ، ومن دونه حجاب .

وهو ساهر في دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس ، والصبح ناءٍ بعيد :

طالت على ساهرٍ دُجُنّته
والصبحُ ناءٍ ، فمن لنا بِغَلَسْ

. . . .

****